امرأة متفردة



جاني سكوت

امرأة متفردة

امرأة متفردة

القصة غير المروية عن والدة باراك أوباما

تأليف

جاني سكوت

ترجمة

مروة عبد الفتاح شحاتة

مراجعة

محمد فتحي خضر



امرأة متفردة

جاني سكوت

A Singular Woman

Janny Scott

الطبعة الأولى ٢٠١٣م
رقم إيداع ٤٨٢٣/٢٠١٣

كلمات عربية للترجمة والنشر
إن كلمات عربية للترجمة والنشر غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٢٧٠٦٣٥٢ ٢٠٢ + **فاكس:** ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢ +
البريد الإلكتروني: kalimat@kalimat.org
الموقع الإلكتروني: http://www.kalimat.org

سكوت، جاني.
امرأة متفردة: القصة غير المروية عن والدة باراك أوباما/تأليف جاني سكوت . – القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر، ٢٠١٣.
٣٣٢ص، ١٦٫٠×٢٣٫٠سم
تدمك: ٥ ٢٥٤ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

١- ستانلي، آن دونام، ١٩٤٢–١٩٩٥
٢- النساء – تراجم

أ- العنوان

٩٢٠٫٧٢

الغلاف: تصميم إيهاب سالم.

المحتويات

في بعض الأحيان أفكر أنني لو كنت أعلم أنها لن تنجو من مرضها كنت سأكتب كتابًا مختلفًا، أقل تأملًا في الأب الغائب، وأكثر حفاوة بالأم التي كانت موجودة دائمًا في حياتي.

باراك أوباما: «أحلام من أبي»
تمهيد طبعة ٢٠٠٤

مقدمة

أنا ابن لرجل أسود من كينيا وامرأة بيضاء من كانساس.

باراك أوباما، ١٨ مارس ٢٠٠٨

كانت الصورة تظهر الابن، لكن عيني انجذبت نحو الأم. أثارت اللمحة الأولى للصورة دهشتي، امرأة بدينة شاحبة البشرة ترتدي صندلًا متينًا، تقف في ثبات متقدمة بنصف خطوة على رجل رشيق داكن البشرة يقف إلى يسارها. أوحى جسده المشدود المرن بالانضباط، بل وحتى الزهد. كان جسدها ممتلئًا، فقد استسلمت منذ زمن طويل لمتع شهوة الطعام والترهل المحتوم على جسد المرأة. وقف غير مبالٍ بالكاميرا بطريقة متعمدة على غرار عارضي الأزياء على غلاف المجلات، مرتديًا ملابس كاكية اللون، وبدا مسترخيًا أمام عدسة الكاميرا. أما هي فقد واجهت الكاميرا مباشرة، وكانت ترتدي ثوبًا مغزولًا يدويًّا ومصبوغًا باللون الأزرق الداكن، وقرطًا فضيًّا نصفه مختبئ أسفل شعرها الأسود المنسدل. رفعت ذقنها بضع درجات أعلى من المعتاد، وكان يضع يده اليمنى فوق كتفها برفق. مثلت الصورة، التي التقطت فوق سطح أحد المنازل بمانهاتن في أغسطس عام ١٩٨٧ وأرسلت إليَّ عبر البريد الإلكتروني بعد عشرين عامًا، كشفًا ولغزًا. كان الرجل هو باراك أوباما في سن السادسة والعشرين، المنظم المجتمعي القادم من شيكاجو أثناء زيارة له لنيويورك. أما المرأة، فكانت ستانلي آن دونام، أمه. كان من المستحيل ألا أتنبه بقوة لأوجه التشابه وأوجه الاختلاف بينهما. وكان من المستحيل أيضًا ألا أتشكك، في تلك اللحظة، في الصورة النمطية التي اختُزلت فيها أم الرئيس: امرأة بيضاء من كانساس.

كثيرًا ما خضعت صورة أم الرئيس للتبسيط المبالغ فيه. ففي الرواية الموجزة لقصة حياة أوباما، تظهر ستانلي آن في صورة المرأة البيضاء القادمة من ولاية

كانساس التي تتزوج في وئام من رجل أسود كيني. كانت فتاة قروية معدومة الخبرة تقليدية على عكس الرجل الكيني. وفي كتاب «أحلام من أبي» — مذكرات الرئيس أوباما التي ساهمت في تمكينه في رحلة صعوده السياسي — تظهر فيها في صورة الفتاة الخجولة ضيقة الأفق التي تقع في غرام الرجل الأفريقي الذكي ذي الشخصية الجذابة الذي حظي باهتمام وتركيز أوباما في روايته. وفي الفصل التالي، تظهر في صورة الحالمة الساذجة والبريئة الواهمة. وأثناء حملة الرئيس أوباما الرئاسية، ظهرت في صورة أم عزباء مكافحة، ومتلقية للمعونة الغذائية من الحكومة، وضحية نظام رعاية صحية غير ملائم، تستجدي شركة التأمين لتغطي تكاليف علاجها بينما تنقضي حياتها. أما الصحف الصفراء التي تباع في المحلات التجارية والإنترنت، فقد صورتها على نحو مغلوط على أنها المرأة الملحدة، الماركسية، الرافضة للأعراف والتقاليد، الأم التي «هجرت» ابنها أو خدعت ولاية هاواي كي تصدر شهادة ميلاد لابنها المولود في كينيا، على أمل أنه قد يود أن يترشح للرئاسة يومًا ما.

لم تكن المرأة العادية التي ظهرت في الصورة متوافقة مع أي من الأوصاف السابقة.

بعد بضعة شهور من وصول تلك الصورة إلى يدي، كتبت مقالًا لصحيفة نيويورك تايمز عن ستانلي آن دونام. كان مقالًا ضمن سلسلة من المقالات المتعلقة بالسيرة الذاتية للسناتور أوباما في ذلك الوقت نشرتها صحيفة تايمز أثناء حملته الرئاسية. كان المقال طويلًا مقارنة بالمقالات الصحفية، لكنه كان أقصر من المطلوب للحديث عن حياة شخص، بيد أن الأشخاص الذين قرءوه استحوذت قصتها على اهتمامهم، وقال البعض إنهم تأثروا بها إلى حد البكاء. ترتب على هذا المقال، تقديم عرض لي لتأليف كتاب عن ستانلي آن دونام، وأمضيت عامين ونصف العام في اقتفاء أثرها. سافرتُ عبر تلال فلينت هيلز بولاية كانساس إلى مدن الطفرة النفطية السابقة، حيث نشأ والداها أثناء الكساد الكبير. وأمضيتُ عدة أسابيع في هاواي، حيث حملت في طفلها في السابعة عشرة من عمرها، وتزوجت في الثامنة عشرة، ثم طُلِّقت وتزوجت مرة أخرى وهي في الثانية والعشرين. سافرتُ مرتين إلى إندونيسيا، حيث اصطحبتْ ابنها وهو في السادسة، ثم أرسلتْه وحده وهو في العاشرة من عمره إلى والديها في هاواي. زرت القرى الترابية في جاوة، حيث أجرت أبحاثها الميدانية بصفتها متخصصة شابة في الأنثروبولوجيا من أجل رسالتها للدكتوراه عن الحدادة

في القرى. التقيت بمصرفيين في أبراج بواجهات زجاجية في جاكرتا، حيث عملت ستانلي آن على أكبر مشروع تجاري للتمويل بالغ الصغر يدعم نفسه بنفسه في العالم، قبل عقدين تقريبًا من اقتسام محمد يونس وبنك جرامين جائزة نوبل للسلام لعملهما في مجال الائتمان بالغ الصغر. تفحصتُ دفاتر ملاحظاتها الميدانية البالية، وصناديق الأبحاث الشخصية والمهنية، وخطابات إلى الأصدقاء، وألبومات الصور، وسجلات مؤسسة فورد في وسط مدينة مانهاتن، ورسالة الدكتوراه التي بلغت ألف صفحة وأفنت فيها ستانلي آن خمسة عشر عامًا لإنهائها. حاورتُ ما يقرب من مائتين من زملائها بالعمل، وأصدقائها، وأساتذتها، وأصحاب العمل، ومعارفها وأقاربها، بمن فيهم ابنها وابنتها. ودون سعة صدرهم ما استطعت كتابة هذا الكتاب.

إن وصف ستانلي آن دونام بأنها امرأة بيضاء من ولاية كانساس لا يكفي للتعريف بشخصيتها، تمامًا مثلما لا يكفي وصف ابنها بأنه سياسي يحب ممارسة الجولف للتعريف بشخصيته. سواء عن قصد أم لا، يخفي هذا الوصف قصة استثنائية، عن فتاة تحمل اسم صبي نشأت في السنوات التي سبقت حركة الحقوق المدنية، والحركة النسائية، وحرب فيتنام، وظهور حبوب منع الحمل، تزوجت من رجل أفريقي في وقت كانت أربعة وعشرون ولاية تقريبًا بها قوانين تمنع الزواج بين الأعراق المختلفة. وفي سن الرابعة والعشرين انتقلت إلى جاكرتا مع ابنها في الأيام التي تلت مجزرة مناهضة للشيوعيين يعتقد أن مئات الآلاف من الإندونيسيين ذبحوا خلالها. ثم عاشت ما يزيد عن نصف حياتها كراشدة في مكان يكاد لا يعرفه معظم الأمريكيين، وسط ثقافة عتيقة ومعقدة، في بلد به أكبر تعداد سكاني للمسلمين في العالم. وأمضت سنوات في العمل بقرى يندر بها وجود امرأة غربية غير متزوجة، وانهمكت في دراسة حرفة مقدسة مارسها على مدى زمن طويل الرجال فقط. ربَّت طفلًا وطفلة من والدين من عرقين مختلفين كامرأة عاملة وعزباء أغلب الوقت. كذلك عشقت ابنها وابنتها، وآمنت أن ابنها على وجه الخصوص يملك قدرات تؤهله لأن يصير عظيم الشأن، وربته ليصير — كما قال هو مازحًا — مزيجًا من ألبرت أينشتاين وماهاتما غاندي وهاري بيلافونت، ثم ماتت في الثانية والخمسين من عمرها، ولم تعلم قط ما سيصل إليه.

لو امتد بستانلي آن العمر، كان سيصير عمرها ستة وستين عامًا في العشرين من يناير عام ٢٠٠٩، عندما أقسم باراك أوباما اليمين وأصبح الرئيس الرابع والأربعين للولايات المتحدة.

كانت ستانلي آن شخصية خاصة تتمتع بأبعاد ليس من السهل فهمها. وفي حديث بالمكتب البيضاوي في يوليو عام ٢٠١٠، وصف الرئيس أوباما أمه بأنها مثالية على نحو ساذج وبأنها مثقفة وذكية. قال إنها كانت شديدة الجدية حيال عملها، مع ذلك كانت تتمتع برقة وكرم أخلاق نتج عنهما بين الحين والآخر تعرضها للخداع والاستغلال. كانت تتمتع بصراحة غير عادية، على المستوى الفكري والعاطفي على ما يبدو. قالت لي ابنتها مايا سوتورو إنج ذات مرة: «يكمن أساس قوتها في قدرتها على التعاطف.» وكانت صارمة وتتمتع بروح الدعابة. كانت تتأثر إلى درجة البكاء عندما ترى معاناة الغرباء، وكانت صلبة الإرادة في تحفيز ابنها وابنتها. كانت تنتحب في صالات العرض عند مشاهدة الأفلام، لكن كان بإمكانها إطلاق دعابة بارعة موجهة بعناية، حتى إن أي شخص يسمعها لا يمكن أن ينساها. خصصت سنوات من حياتها لمساعدة الفقراء، الكثير منهم من النساء، في سبيل الحصول على قروض، لكنها أساءت إدارة مواردها المالية الخاصة، واستدانت عدة مرات من أمها التي كانت تعمل مصرفية، وأغرقتها الديون. أظهرت الشجاعة في شتى تفاصيل حياتها، الصغيرة والكبيرة. كانت تخشى الأطباء، مما سبب لها الضرر على الأرجح. وكانت تخشى ركوب مترو الأنفاق بنيويورك، ولم تتعلم القيادة قط. وفي أوج نجاحها العملي، يذكرها زملاؤها بأنها تمتعت بحضور مهيب إلى حدٍّ بعيد، كانت تتزين بملابس منقوشة بطريقة الباتيك وبالحلي الفضية وتهبط على قرى جزيرة جاوة وحولها حاشية من العاملين بالمصرف الإندونيسي صغار السن، وكانت مطلعة بقوة على المنسوجات والآثار الإندونيسية، والمعنى الرمزي الروحي للخنجر الجاوي متموج النصل، وتحمل معها حقيبة سوداء تكتظ بدفاتر الملاحظات الميدانية ووعاء لحفظ المشروبات يحوي قهوة سادة، وكانت خبيرة في الأطعمة الشهية مثل التمبه وسايور لوديه، وهو يخنة الباذنجان، وتسلي زملاءها بالعمل بقصص مضحكة، وتقول مازحة إنها بعد الموت ستتجسد روحها في شخص حدَّاد إندونيسي، ودائمًا ما تكرر في مكر أنها مجرد «فتاة بسيطة من كانساس».

لا يوجد دليل قوي في الأبحاث التي تركتها وراءها وفي روايات الأصدقاء والزملاء على شروع ستانلي آن في تغيير العالم. لقد كانت إنسانة، بطريقة مثيرة للإعجاب ومؤثرة وأحيانًا مثيرة للسخط. لم تكن حياتها سهلة، وهذا قد يساعد في تفسير سبب إساءة فهمها أو إساءة تقديمها أو إغفالها في دور هامشي. اتسمت حياتها بتوترات واختيارات سيستطيع القراء تمييزها، لا سيما النساء. كانت حياتها

ارتجالية تبرز فيها العثرات والقفزات. كتبت في تزلف وهي في سن الثلاثين إلى صديق لها، بعد أن طُلِّقت من زوجها الأول، وانفصلت عن زوجها الثاني، وفي طريقها لأن تصير أمًّا عزباء لطفلين: «أنا لست ناقدة قاسية في النهاية، فحتى أنا واجهت الفشل الذريع بضع مرات.» كذلك كانت ستانلي آن تتمتع بالمرونة، إذ وصفها أحد أصدقائها بأنها استمرت في «تغيير محور تركيز حياتها». آمنت بقيم قوية، ونقلتها لطفليها. كانت مثالية وعملية. لم تكن حالمة أو قديسة، وآمنت بأن حياة الناس يمكن تحسينها، وأنه من المهم أن يحاول الإنسان. وبطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أنجزت في سبيل تحقيق تلك الغاية أكثر مما سيتمكن معظمنا من إنجازه. وفجأة، في وسط كل ذلك، رحلت عن العالم. قالت لي مايا: «لم تندم على أي من اختياراتها. كل ما كانت تريده هو مزيد من الوقت، مزيد من الوقت لارتكاب الأخطاء، ومزيد من الوقت لعمل أشياء صالحة ...»

لا بد أن يواجه أي شخص يكتب عن حياة ستانلي آن إشكالية الاسم الذي سيطلقه عليها. أُطلق عليها اسم ستانلي آن دونام عند الميلاد، وستانلي في طفولتها، لكنها تخلت عن اسم ستانلي عند تخرجها في المدرسة الثانوية. أصبحت آن دونام، ثم آن أوباما، ثم آن سويتورو حتى طلاقها من زوجها الثاني. ثم احتفظت باسم زوجها الثاني لكن حدَّثت من نطقه إلى سوتورو. في أوائل الثمانينيات، كانت تدعى آن سوتورو، وآن دونام سوتورو، وإس آن دونام سوتورو. خلال المحادثات، أشار إليها الإندونيسيون ممن عملوا معها في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات بآن دونام، بالتشديد على المقطع الثاني من لقبها. وقرب نهاية حياتها، وقعت رسالة الدكتوراه باسم إس آن دونام والمراسلات الرسمية بـ (ستانلي) آن دونام. بدءًا من الفصل الأول من هذا الكتاب، فضلت أن أحذو حذوها وأستخدم الاسم الذي كانت تستخدمه في كل مرحلة من هذه المراحل.

أثناء الحملة الرئاسية، انتاب مَن عرفوا آن جيدًا الحيرة جراء ما شعروا أنه تصوير هزلي لشخصها. بكت إحدى صديقاتها وتدعى كادي وارنر أثناء وقوفها في طابور الدفع بأحد المتاجر لما بدا لها كظلم في عنوان رئيسي بإحدى الصحف الصفراء: «أوباما الذي هجرته أمه!» كانت صديقتها واثقة من أنه يمكن رؤية ستانلي آن في ذكاء أوباما وطباعه وحس دعابته، ناهيك عن ذقنه الطويل وبروز أسنانه عند الضحك، وشكل أذنيه. مع ذلك، بدا أن أوباما، الذي ألف كتابًا بالفعل متمحورًا حول شبح أبيه الغائب، يتحدث عن جديه أكثر مما تحدث عن والدته. ظن

البعض أنه بإمكانهم تخمين بعض أسباب ذلك. قال لي بروس هاركر، وهو أحد زملاء ستانلي آن السابقين: «إن أوباما كان يترشح لرئاسة أمريكا وليس إندونيسيا. ينفق الأمريكيون جزءًا كبيرًا من الدخل والناتج القومي على المساعدات الأجنبية. هل تظنين حقًّا أن بإمكانه الفوز بالانتخابات إذا قال: «إن أمي كانت إندونيسية أكثر مما كانت أمريكية»؟ لقد لعب على الورقة الرابحة: «ترعرعت في كنف أم عزباء تتلقى طوابع المعونة الغذائية؛ ترعرعت في كنف جدتي، شأني شأن الكثير من السود.»

وأردف: «هل يتحدث عن أمه باعتبارها عالمة أنثروبولوجيا حالمة داعية للسلم تقدم المساعدات الأجنبية في إندونيسيا؟» ثم توقف ليتأكد من أنني فهمت أنه يتهكم. ثم أردف: «أين إندونيسيا؟ أتقع بجانب الهند؟ مستحيل.»»

ليس هذا الكتاب عن الرئيس أوباما، بل هو عن أمه. لقد شكلت أمه شخصيته، بدرجة يبدو أنه يعترف بها يومًا بعد يوم. في تمهيد طبعة عام ٢٠٠٤ من كتاب «أحلام من أبي»، التي صدرت بعد تسعة أعوام من الطبعة الأولى وتسعة أعوام من وفاة ستانلي آن، أفصح أوباما عن اعتراف غاية في الأهمية، يقول فيه إنه لو علم أن أمه لن تنجو من مرضها، لكان من الممكن أن يكتب كتابًا مختلفًا: «أقل تأملًا في الأب الغائب وأكثر حفاوة بالأم التي كانت موجودة دائمًا في حياتي». وبعد عامين، في كتاب «جرأة الأمل»، عاد إلى الموضوع ثانية وكتب أنه عندما يستعيد الأحداث يدرك إلى أي مدى «أرشدتني روحها على نحو غير مرئي إلى المسار الذي سلكته في النهاية». إذا كانت طموحاته جاءت مدفوعة بمشاعره تجاه والده، بما فيها من مشاعر السخط والرغبة في كسب حب الأب، فإن تلك الطموحات وجهها إيمان أمه في صلاح الناس وفي قيمة كل حياة. شرع أوباما في دراسة الفلسفة السياسية بحثًا عن تأكيد للقيم التي آمنت بها أمه، وأصبح منظمًا مجتمعيًّا في محاولة منه لتطبيق تلك القيم عمليًّا. يقول في إهداء كتابه الثاني: «إلى المرأة التي ربتني»، ويقصد جدته لأمه «التي طالما كانت ركيزة الاستقرار في حياتي كلها»، وإلى أمي «التي لا تزال روحها الحية تدعمني».

كان ذلك سيسعدها. لا بد أن ستانلي آن دونام — التي كانت تطير فرحًا اليوم بأكمله عند تسلمها رسالة من ابنها وهي في جاكرتا — كانت تتساءل عن مكانها في حياته. وفي مناسبات نادرة، أشارت إلى ذلك الأمر — بألم وكآبة — إلى أصدقائها المقربين. لكنها ما كانت لتنزع إلى المبالغة في الأمر. وكما أخبرته، في دعابة جافة تبدو من شيم أهل كانساس: «على الأقل، لقد وهبتك حياة شيقة.»

الفصل الأول

أحلام من البراري

في أواخر شتاء عام ٢٠٠٩، وافق تشارلز باين — على مضض — على السماح لي بزيارته في شيكاجو. كان يبلغ من العمر أربعة وثمانين عامًا، وهو الأكبر بين ثلاثة أشقاء لمادلين باين دونام، الجدة صلبة الإرادة المعروفة بمساهمتها في تنشئة باراك أوباما وامتد بها العمر حتى تابعت حملته الرئاسية التي استمرت عامين من شقتها بهونولولو قبل وفاتها عن عمر يناهز السادسة والثمانين، أي قبيل يومين من الانتخابات الرئاسية. قرر تشارلز باين — وهو رائد في مجال حوسبة البيانات المكتبية تقاعد عام ١٩٩٥ عن منصب مساعد مدير المكتبة بجامعة شيكاجو — تجاهل خطاب أرسلته إلى منزله عبر شركة فيدكس ورسالة تركتها له على هاتفه. وعندما أخطأ ذات صباح ورد على الهاتف حين اتصلت، قال إنه قطع عهدًا على نفسه بألا يتحدث إلى أناس مثلي. قال إنه في المناسبات القليلة التي أدلى فيها بحديث لصحفيين، تورط في المشكلات. تحدثنا عشر دقائق، أخذنا نتجادل فيها، وبعد ذلك قال لي إنه بمقدوري الحضور إليه، مع تأكيده على أن الزيارة لن تستحق مني إهدار وقتي على الأرجح. بناءً على ذلك، ذهبت إليه صبيحة يوم بارد من أيام شهر فبراير. كانت الرياح تهب بقوة من بحيرة ميشيجان والثلوج تتراكم على جوانب شريط القطار على طول الطريق من مطار أوهير. وعند باب شقة السيد باين الكائنة بليك شور درايف، استقبلني رجل ثمانيني نحيل أشيب الشعر لكنه يبدو مليئًا بالنشاط (أخبرني فيما بعد أنه حل مؤخرًا مشكلة زيادة الوزن المستمرة عن طريق إلغاء وجبة الغداء من حياته). ارتسمت على وجهه نظرة سعادة وارتياب في الآن ذاته، كانت نظرة رجل منعه التحضر والتهذيب من أن يطلب من أي زائر متطفل الانصراف.

جلسنا يواجه أحدنا الآخر عند طاولة مستديرة في مطبخه النظيف والمنظم. كانت شقته فريدة في البناية، يُزعم أن المهندس المعماري صممها لنفسه خِصِّيصَى

على هيئة صندوق مجوهرات وعش طائر. أخبر العمال الذين حضروا لترميم رف المدفأة بحجرة المعيشة السيد باين ذات مرة بأن الشقة تبدو أوروبية الطراز كأنها بنيت منذ مئات السنين. بدأ السيد باين كلامه بقصة تحذيرية، قال إنه في عام ٢٠٠٠، أقام حفل عيد ميلاده الخامس والسبعين بعد إلحاح من ابنه، ودعا أشقاءه الثلاثة للحفل. كان ذلك يتوافق مع الاحتفالات بالألفية الثالثة، وكانت آخر مرة اجتمع فيها بأشقائه في جنازة والدته، أي قبل اثنين وثلاثين عامًا. وصلت مادلين، نائبة رئيس أحد البنوك المتقاعدة، من مدينة هونولولو، ووصلت آرلين، الباحثة المتقاعدة في التعليم والإحصاء في إحدى الجامعات، من مدينة تشابل هيل بولاية نورث كارولينا، ووصل جون، مدير تخطيط المدن المتقاعد، من مدينة ليتلتون بولاية كولورادو. كذلك حضر السيد أوباما — كان حينئذ عضو مجلس الشيوخ لولاية إلينوي عن المقاطعة الثالثة عشرة — بصحبة زوجته ميشيل وابنته ماليا. قال السيد باين: «ما أدهشني هو أنه على الرغم من مرور كل هذه السنوات، كانت ذكرياتنا عن الطفولة مختلفة للغاية، بل ذكرياتنا عن الواقعة نفسها. كانت مادلين تتذكر شيئًا، وآرلين تتذكر شيئًا مختلفًا. وكلا الشيئين خاطئ وفقًا لما أذكره.» وقد لاحظ الأمر نفسه قبل بضع سنوات أثناء سماعه تسجيلات تاريخية حول عمل وحدة خاصة بمكتبة الكونجرس طورت أول نظام ببليوغرافي مقروء آليًّا، وكان هو من بين أفراد تلك الوحدة الخاصة. قال باين: «أدهشني بالمثل مدى تشوه ذكريات أفراد الوحدة الخاصة تمامًا فيما يتعلق بذلك العمل، لكن ما أمتعني أن كل فرد من الذين استمعت إليهم تحول — بطريقة أو بأخرى — إلى بطل القصة: لقد طور ذلك، وكانت فكرته عمل كذا وكذا، وإنه قاد الوحدة في كذا وكذا.»

صمت السيد باين وأخذ ينظر إليَّ في هدوء متسائلًا هل أوضح وجهة نظره؟

ثم قال: «أقصد مما ذكرته أن أقول لك: لا تثقي في الذاكرة.»

من المستحيل الحصول على وصف كامل للسنوات الأولى من عمر ستانلي آن دونام وقصص والديها، ستانلي أرمور دونام ومادلين لي باين، دون أن نثق في ذاكرة الأشخاص الذين عرفوهم. لا يوجد تاريخ موثق لعائلتي دونام وباين وللأحداث التي قادتهما إلى العيش في فلنت هيلز بولاية كانساس في العقود الأولى من القرن العشرين. تتبع علماء الأنساب أسلاف هاتين العائلتين خلال القرنين الماضيين في إنديانا وميزوري وفيرجينيا وأركنساس ومقاطعة أوكلاهوما وأوهايو وكنتاكي وتنيسي ونيو جيرسي وبنسلفانيا وديلاوير وماساتشوستس. لكن مصداقية أشجار

العائلة تلك ليست مؤكدة. ثمة تنويهات بالمواليد في الجرائد، وسجلات التعميد، والمجلات السنوية للمدارس الثانوية، وبطاقات التسجيل في الخدمة العسكرية، وتصريحات الزواج وسجلات التعداد السكاني، وسجلات المدينة، ومقالات بالجرائد، والنعايا، وشهادات الوفاة، وإعلانات الجنائز. لكن السجلات العامة لا تقدم سوى إطار يخلو من اللون والنسيج والمشاعر، شأنها شأن الآثار الصمغية لأطراف الصورة التي تبقى في الألبومات القديمة بعد أن تتآكل الصور أو تسقط. خط الرئيس أوباما قصة حياة أجداده في مذكراته — «أحلام من أبي» — الرقيقة والعاطفية التي صدرت عام ١٩٩٥. نسجها من واقع قصص رويت له في طفولته، وأعاد سردها بحكمة الابن والحفيد في وقت كانت أمه وجدته لا تزالان على قيد الحياة. فضلًا عن ذلك هناك بضع أفراد يَمُتُّون بصلة قرابة بعيدة لستانلي آن ويحملون ذكريات كأنهم صناديق تكتظ بتاريخ للعائلة، وثمة زملاء لها بالصف، بأعداد متناقصة، يحملون شظايا من ذكريات عن ولاية كانساس إبان فترة الكساد الكبير. في وقت تأليف هذا الكتاب، لم يكن والدا ستانلي آن على قيد الحياة. وافقت أمها، مادلين، على إجراء حوار معها في سبتمبر ٢٠٠٨، شريطة أن يُجرى الحوار بعد الانتخابات الرئاسية. وتوفي ستانلي، والد ستانلي آن، عام ١٩٩٢ إثر إصابته بمرض سرطان البروستاتا. إلا أن جميع أشقاء والديها على قيد الحياة، وتحدثوا بالتفصيل عما يذكرونه. مكنتني مساعدتهم من معرفة قصة العائلة التي جلبت إلى الدنيا ستانلي آن في يوم من أيام فصل الشتاء في نوفمبر عام ١٩٤٢ بمقاطعة ويتشيتا.

ثمة صفة عذبة وأمريكية أصيلة تميز شجرة العائلة وتمتد فروعها عبر ابن ستانلي آن، الرئيس أوباما، وحوله. ولد الرئيس أوباما لأم بيضاء من ولاية كانساس الأمريكية وأب أسود من كينيا، ثم عاش مع زوج أمه الجاوي، لولو سوتورو، طوال أربع سنوات في جاكرتا في طفولته، بعد ذلك تزوج من أمريكية ذات أصول أفريقية، ميشيل، المنحدرة من سلالات العبيد. هناك أيضًا أخته غير الشقيقة، مايا سوتورو إنج؛ التي تزوجت من رجل كندي من أصول صينية، وهو كونراد إنج. أضف إلى ذلك إخوة وأخوات الرئيس غير الأشقاء من أصول كينية ونصف كينية المتناثرين في مدن العالم مثل نيروبي وبكين. إلا أن هذه العائلة التي اجتمعت في واشنطن العاصمة لحضور حفل تنصيب أول رئيس أسود للولايات المتحدة في يناير ٢٠٠٩ بدت عائلة أمريكية أصيلة فريدة وفي الوقت نفسه جديدة من نوعها. ففي مزيج أجناسها وأعراقها وجنسياتها وثقافاتها، بدت في الآن ذاته أنها تجسد تطلعات الآباء

المؤسسين للولايات المتحدة بإتاحة الفرصة أمام جميع البشر، والأمل بأن تكون منارة للمهاجرين في إطار ثقافة عالمية متنامية، والمضي قدمًا وسط الكفاح المستمر لتجاوز التاريخ العنصري للولايات المتحدة.

لا يعرف سوى القليل شجرة العائلة التي تنحدر منها ستانلي آن دونام، لكنها عائلة أمريكية تقليدية. كان أجدادها مزارعين ومعلمين ومناصرين لإلغاء الاسترقاق وقساوسة في الكنيسة الميثودية ومعمدانيين ومحاربين قدامى في الحرب الأهلية والحربين العالميتين. كان أجداد ستانلي آن من المعمرين، عاش العديد منهم حتى سن الثمانين وأوائل التسعين. أُطلقت عليهم أسماؤهم تيمنًا بأبطال وطنيين وشعراء؛ مثل رالف والدو إميرسون دونام، وكريستوفر كولومبس كلارك وجورج واشنطن كلارك (شقيقي توماس جيفرسون كلارك وفرانسيس ماريون كلارك). وإذا عدنا للوراء عدة أجيال، نجد أنهم آمنوا بالتعليم بدرجة غير عادية. في وقت لم يحصل به سوى قلة من الشعب الأمريكي على تعليم بعد المرحلة الثانوية، التحق جداها لأبيها بالكلية، وفقًا لما أخبرني به عمها رالف دونام. وعلى مدى أجيال، اشتغل أفراد عائلتها من كلا الجانبين بالتدريس. ولطالما دارت أقاويل، لم تثبت صحتها، أن عائلتها منحدرة من قبيلة شيروكي. وفقًا لتاريخ العائلة، يقال إن الجد الأكبر لمادلين باين دونام تزوج من إحدى عمات وايلد بيل هيكوك. ويحظى جدها بشهرة أنه صافح الرئيس لينكولن وهو على كتف أبيه وشاهد مقتل أخيه رميًا بالرصاص على يد مجموعة من المجرمين جنوب ولاية ميزوري بعد ستة أعوام من ذلك. أما خالة أمها، روث ماكاري، وهي معلمة، فيقال إنها درَّست لميكي مانتل بمدينة كوميرس، بولاية أوكلاهوما. تذكر رالف دونام قائلًا إنه حينما كان طفلًا صغيرًا أمضى ليلة في منزل ويليام آلن وايت، حكيم مدينة إمبوريا، بعد أن سلم والد دونام، وكان موظفًا في شركة إلدورادو جاراج، إلى السيد وايت سيارته من طراز بيرس آرو. خدم تشارلز باين في وحدة سلاح المشاة التاسعة والثمانين التي حررت معسكر أوردروف، وهو معسكر تابع لمعسكر بوشنفالد وأول معسكر اعتقال نازي تحرره القوات الأمريكية في ألمانيا في أبريل عام ١٩٤٥. لهذه العائلة جذور تمتد لزمن بعيد، وقد اهتمت بالتاريخ بدرجة كبيرة، حتى تراكم لديها الكثير من القصص. في الواقع قال لي رالف دونام: «لعلك تدركين أنه تجمعنا صلة قرابة بعائلة بوش، وديك تشيني، ومارك توين أيضًا تربطنا به قرابة بعيدة. وإذا عدت إلى الوراء أكثر، فستجدين أن أجدادنا الأوائل كانت تجمعهم علاقة بأفراد من العائلة الملكية.

ثمة شيء آخر: تجمعني صلة قرابة بعيدة بجيفرسون ديفيز؛ إذ كانت أم جدي الأكبر كلارك تنتمي إلى عائلة ديفيز، وكانت ابنة عم من الدرجة الأولى لجيفرسون ديفيز ...» على الرغم من المحاولات التي تسعى إلى إظهار باراك أوباما باعتباره شخصًا دخيلًا، بل أجنبيًّا، فبإمكانه الاحتجاج بإرثه العائلي الأمريكي الأصيل. ثمة صفة أمريكية أخرى، تتجلى في أفضل صورها، في زحف تلك الأجيال السريع على مدى القرن والنصف الماضي من المزارع الصغيرة إلى البلدات متوسطة الحجم ثم إلى المدن الكبيرة ثم إلى المناطق الحضرية مترامية الأطراف لتعبر في النهاية المحيطات والاختلافات الثقافية الشاسعة وتصل إلى مدن كجاكرتا ويوجياكارتا وكاليمنتان.

أدرك تشارلز باين، عم ستانلي آن، وهو طفل صغير في مدينة أوجاستا بولاية كانساس، جديه. كان جده لأمه، توماس كريكمور ماكاري، يمتلك مزرعة في بيرو بولاية كانساس، وكانت بلدة يبلغ تعداد سكانها مائة نسمة تقريبًا وتقع قرب الحد الجنوبي لمقاطعة تشوتوكوا عند حدود ولاية أوكلاهوما. أما جده لأبيه، فكان يمتلك مزرعة في مدينة أوليثا، مركز مقاطعة جونسون في شمال شرق ولاية كانساس. حرث جداه الأرض بالطريقة التقليدية، دون أنابيب مياه أو كهرباء أو جرارات. اعتادت ليونا ماكاري باين، ابنة توماس سي ماكاري، إخبار أبنائها بأن أباها كان يتباهى باستقامة الصفوف التي سواها بمحراثه الذي تجره الخيول. واعتادت أن تخبرهم أن جدهم كان يزرع البطاطا «عندما يكون القمر محاقًا». ربى أجداده من كلا الجانبين ستة أطفال تقريبًا. كبر هؤلاء الأطفال وتوافدوا إلى المدن وعثروا على وظائف ولم يشتغلوا بالزراعة. ذهب أبناؤهم تباعًا إلى الكليات، ورحلوا عن كانساس، وانتهى بهم المطاف في المدن الكبرى في أرجاء الولايات المتحدة. لم ينجب كل من أبناء باين الأربعة — مادلين وتشارلز وآرلين وجون — سوى طفل أو طفلين. أصبح اثنان من أبنائهم متخصصين في الأنثروبولوجيا يجريان أبحاثًا ميدانية في إندونيسيا. أمضى ريتشارد باين، ابن تشارلز باين، وابن خال ستانلي آن الأصغر، عدة سنوات في الجزء التابع لإندونيسيا من جزيرة بورنيو، والمعروف الآن بكاليمنتان. في الليلة الأخيرة من انعقاد المؤتمر القومي للحزب الديمقراطي في أغسطس عام ٢٠٠٨ في مدينة دنفر، عاد ريتشارد باين وأبوه إلى الفندق في سيارة رياضية متعددة الأغراض ومعهما مايا سوتورو إنج، أخت الرئيس أوباما من أمه، وأفراد آخرون من العائلة. يقول تشارلز باين متذكرًا: «بطريقة ما بدأت مايا وريتشارد في الحديث معًا بلغة الباهاسا الإندونيسية» مشيرًا إلى اللغة الرسمية لإندونيسيا. وأردف: «أخذا يتجاذبان

أطراف حديث هادئ، وعندما انتهيا من ذلك — أقصد التباهي بالطبع — قالت مايا لريتشارد: «لديك لكنة ريفية نوعًا ما.» فرد عليها: «أجل، أعلم ذلك».»

تختلف كاليمنتان تمام الاختلاف عن كانساس؛ الولاية التي بدأت فيها قصة ستانلي آن. لكن ولاية كانساس تختلف تمامًا عن الصورة النمطية التي يستحضرها اسمها إلى الذهن. فهي أكثر تعقيدًا وتناقضًا وإثارة للدهشة؛ فهي مكان يجمع بين المتناقضات. وصفها كريج ماينر، مؤرخ ومؤلف كتاب، «كانساس: تاريخ ولاية زهرة عباد الشمس، ١٨٥٤–٢٠٠٠» بأنها مكان هبوب العواصف التي يبلغ قطرها ألف ميل والسحب الصيفية التي تأسر الألباب و«يبلغ ارتفاعها ثلاثة أضعاف ارتفاع جبل بايكس بيك»، وحملت الرقم القياسي لأكبر حبة برد على أرضها لمدة طويلة. وسجلت من أعاصير الدرجة الخامسة على مقياس فوجيتا للأعاصير منذ عام ١٨٨٠ عددًا أعلى من أي ولاية أخرى. ذكر ماينر في كتابه أنه في بعض الأوقات تبدو السماء الليلية شديدة الصفاء، وتظهر مجرة المرأة المسلسلة — التي تبعد عن كوكب الأرض مليوني سنة ضوئية وأكثر — واضحة كوضوح القمر. إلا أن الغبار الأرضي بالولاية كثيف للغاية حتى إن أهلها يقودون سياراتهم والضوء الأمامي للسيارة مضاء في وضح النهار. وفي صيف العام الذي بلغت فيه مادلين، والدة ستانلي آن، الحادية عشرة من عمرها، وصلت درجة الحرارة في مدينة أوجاستا، مسقط رأسها، ١٢١ فهرنهايت في ١٨ يوليو، وهي أعلى درجة حرارة سجلت. ذاب طلاء مقاعد الكنيسة الميثودية والتصق بملابس رواد الكنيسة. وبلغت أقل درجة حرارة شهدتها الولاية على الإطلاق أربعين درجة فهرنهايت تحت الصفر. ذكر ماينر في كتابه أن ولاية كانساس هي المكان الذي توجد فيه أحيانًا قيم حياة البراري المثالية جنبًا إلى جنب مع عناصر معاداة السامية ومعاداة المذهب العقلاني والانعزالية وجمعيات الكو كلوكس كلان العنصرية. وفيما يتعلق بقضية العبودية، دب شقاق مرير بين أهالي ولاية كانساس. انضمت الولاية إلى الاتحاد عام ١٨٦١ بعد أربعة أعوام من حروب عصابات محدودة، لكنها كانت دامية، تضمنت مذابح وشن غارات وتدميرًا للمطابع ونهبًا للمنازل. إن شعار ولاية كانساس هو: سنصل إلى النجوم عبر الصعاب، وهو مفهوم استوعبه أجداد ستانلي آن.

ولو أمهل القدر ستانلي آن حتى تشهد الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٨، لربما تذكرته هي الأخرى.

ثمة طريقة معينة في التفكير يرى البعض أنها من سمات أهل كانساس الواضحة. أخبرني كريجماينر قبل شهر من نجاح باراك أوباما في الحصول على ترشيح الحزب الديمقراطي له أن ما يتمتع به أوباما من «مثالية رفيعة» تعود أصولها إلى «المثالية العملية» التي روج لها ويليام آلن وايت، السياسي والمحرر الصحفي الإصلاحي من مدينة إمبوريا. وعلى المستوى التاريخي، لطالما اتصف أهل كانساس بالمثالية والنزعة التقدمية والعملية؛ إذ سعوا إلى تنفيذ أشياء لم تخرج عن حيز الكلام لدى أناس آخرين، وآمنوا بإمكانية التغيير. قال ماينر: «لا شك أن أهل كانساس يختلفون أيما اختلاف حول معنى «أفضل»، فهم يميلون إلى التطرف نحو أقصى اليمين أو أقصى اليسار، وكل هذا يعتمد على الإيمان القوي بقدرة الإنسان على تحسين الأوضاع. إن أكثر الجرائد الاشتراكية انتشارًا على مستوى الولايات المتحدة تصدر في مدينة جيرارد بولاية كانساس. ربما تنظرين إلى كانساس باعتبارها ولاية مؤيدة للحزب الجمهوري، وقد كانت كذلك إلى حد بعيد، لكنها أيدت الجناح شديد الليبرالية في الحزب الجمهوري؛ جمهوريي ثيودور روزفلت.» طبقت الولاية في مرحلة مبكرة القوانين التنظيمية للشركات في صورة واحدة من أوائل اللجان التنظيمية للسكك الحديدية. كانت كلية التربية بجامعة إمبوريا تعد المعلمين وترسلهم كالمبشرين إلى البلدات الصغيرة. ربما كانت كانساس في وقت من الأوقات الولاية التي تضم أكبر عدد ممن يستطيعون القراءة والكتابة، كما أخبرني ماينر. حتى إن قانون حظر الكحول، الذي طبق لفترة أطول وبصورة أقوى في ولاية كانساس عن سائر الولايات، نبع من دافع مثالي لحل مشكلات مثل الجريمة والعنف المنزلي من خلال معالجة المشكلة الأساسية؛ السُّكر. قال لي ماينر: «كان لسان حال الولايات الأخرى: «هذا مستحيل، الناس لن يتغيروا.» أحيانًا أقول إن أهل كانساس ليسوا ممن يقولون: «الأمور على ما يرام معي ومعك.» بل ممن يقولون: «الأمور ليست على ما يرام معي أو معك، وأنا أعلم كيفية معالجتها. بإمكاني تحسين بعض الأوضاع».»

ينتمي والدا ستانلي آن إلى منطقة فلنت هيلز، وهي شريط يمتد مسافة مائتي ميل من الأراضي العشبية، وهي أكبر جزء متبقٍّ غير محروث من البراري العشبية التي سادت الجزء الأوسط من الشمال الأمريكي في الماضي. تخلفت منطقة التلال تلك عن انحسار البحار الداخلية، وأسفرت عن تكون السهول العظمى، وقد أطلق عليها زيبولون بايك هذا الاسم لأن تربتها تحوي صخر الشرت الذي يشبه حجر الصوان، وهو نوع من صخر الكوارتز يحتوي على مادة السيليكا، ولهذا يتعذر حرث هذه

الأرض. تشبه تلك المنطقة بحرًا متموجًا من الزهور البرية والمناطق العشبية، تنمو بها الأعشاب الهندية وعشب الجاموس وعشب لحية الرجل الذي يبلغ طوله ثمانية أقدام، وهو بمنزلة «أشجار الريدوود لكن بين الأعشاب». هناك المئات من أنواع الورود البرية ومائة وخمسون نوعًا من الطيور، وعشرة ملايين نوع من الحشرات لكل فدان في تلك المنطقة. وعلى مدار ثمانية آلاف عام على الأقل سكن المنطقة الهنود الحمر واصطادوا فيها الكثير من ثيران البيسون والإلكة والموظ والظباء. وفي أوائل القرن التاسع عشر، مرت قوافل المسافرين في عربات تجرها الخيول من تلك المنطقة، تبعها بعد ذلك إنشاء خطوط السكك الحديدية. جاء المستوطنون من شرق الولايات المتحدة واستقروا حول المركز التجاري بمدينة أوجاستا، حيث استقرت عائلة مادلين في النهاية، وعلى امتداد نهر وولنَت ريفر بإلدورادو، حيث استقرت عائلة ستانلي. جرب السكان زراعة الذرة، لكنها نزعت العناصر الغذائية الموجودة في التربة وماتت مع الجفاف المتكرر، وشهدت الولاية تفشي أمراض وبائية بين المواشي وهبوب عواصف رملية. في مدينة أوجاستا، في الثامن من أغسطس عام ١٨٧٤، غطت أسراب الجندب الأرض، بارتفاع قدم في بعض الأماكن. التهمت الملابس المعلقة على أحبال الغسيل، والناموسيات الموجودة على النوافذ، ولحاء الأشجار، والمقابض الخشبية للأدوات. التهمت كل شيء ما عدا البصل كما قيل.

كانت فلنت هيلز منطقة يصعب زراعتها، لكنها كانت تصلح تمامًا كمرعى للمواشي. ساق رعاة البقر الماشية برًّا من تكساس إلى كانساس لترعى أثناء الصيف، ثم إلى بلدات المواشي التي تمر بها السكك الحديدية لنقلها إلى حقول التسمين وفي نهاية المطاف إلى المجازر. ومع انتشار السكك الحديدية، تحولت بلدات صغيرة إلى مراكز لشحن الماشية، حيث توضع الماشية في القطارات لتصل إلى مدينة كانساس وشيكاجو. ازدهرت مدن تربية البقر مثل ويتشيتا، التي تبعد ثلاثين ميلًا غرب إلدورادو. وفي عام ١٨٨٦، اكتشفت مقاطعة بتلر حبوب الكافير، وهو نوع من حبوب السورجيم الأفريقية الاستوائية الشبيهة بالذرة التي تستخدم في علف الماشية والدواجن، وتلائم مناخ ولاية كانساس على النحو الأمثل. كانت حبوب الكافير مقاومة للجفاف والحرارة، وتزدهر في الأجواء الدافئة الجافة. ومع تحول مزارعي مقاطعة بتلر إلى تربية الماشية بأعداد متزايدة، ارتفع سعر حبوب الكافير. وبحلول عام ١٩١١، زُرع ما يقرب من ستة آلاف فدان من حبوب الكافير. واحتفاءً بذلك، أقامت رابطة فرسان مابيرا الأخوية أول كرنفال لحبوب الكافير، وامتد الكرنفال ثلاثة

أيام في قلب مدينة إلدورادو، وشمل استعراضات عسكرية ومسابقات لاختيار ملكة جمال ومسابقات أخرى. صُنع قوس نصر من الكافير ووضع في الحي الأول من جادة إيست سنترال. علاوة على ذلك، بنت تسع وعشرون بلدة في المقاطعة أكشاكًا مزخرفة بصور الحيوانات وخرائط للبلدات الصغيرة وشعار ولاية كانساس، جميعها من حبوب الكافير. تنافس الرجال في مسابقات لبناء السياج وتثبيت المسامير وتقليد أصوات الخنازير. أما النساء، فتنافسن في مسابقات تقليد أصوات الديوك وتحمل نقر الأوز ومخض الزبد. وفي إطار الكرنفال أيضًا، عُقد سباق للسلاحف وسباق للعوم. في أكتوبر عام ١٩٢٦، توجت عمة ستانلي آن الكبرى، دوريس إيفلين أرمور، ملكة جمال إلدورادو في كرنفال ذلك العام. كانت دوريس قد أنهت تعليمها الثانوي في مدرسة إلدورادو الثانوية عام ١٩٢٣ وتخرجت في كلية المعلمين بجامعة ولاية كانساس في مدينة إمبوريا، وصفتها الجريدة المحلية بأنها «فتاة تتمتع بجمال حقيقي، ذات شعر بني داكن قصير، وعينين بنيتين، ولون بشرتها رقيق وطبيعي وجذاب للغاية».

زخرت مقاطعة بتلر بمورد آخر، بل إنه كان أفضل من حبوب الكافير وأكثر إثارة للقلاقل. فقبل بضع سنوات من ميلاد ستانلي دونام ومادلين باين، قلب كشفٌ كبير لحقل نفط اقتصادَ المنطقة رأسًا على عقب بين عشية وضحاها تقريبًا. في قلب الأحجار المسامية الممتدة بمحاذاة الحافة الشرقية من منطقة نيماها ريدج جنوب شرق كانساس، كان هناك حقول للنفط والغاز الطبيعي. وفي السابع من أكتوبر عام ١٩١٥، اكتشفت شركة ويتشيتا ناتشرال جاس بئرًا للنفط في أرض يمتلكها جون ستابلتون على بعد خمسة أميال شمال غرب إلدورادو. كان من بين أكبر الاكتشافات النفطية في ذلك الوقت. اندفعت شركات النفط ورجال الأعمال إلى تلك المنطقة. وفي عام ١٩١٨، العام الذي ولد فيه ستانلي، أنتج حقل إلدورادو ٢٩ مليون برميل، وهو رقم قال كريج ماينر إنه يزيد عن تسعة أضعاف الإنتاج الكلي لولاية كانساس من النفط قبل ثلاث سنوات من ذلك. أضحت إلدورادو أكبر حقل إنتاج للنفط في الولايات المتحدة. وتزامن ذلك مع اندلاع الحرب العالمية الأولى أيضًا مما أدى إلى ارتفاع أسعار النفط. كذلك اكتشفت حقول جديدة بجانب تواندا وأوجاستا. ظهرت في ذلك الوقت الروافع التي توضع فوق آبار النفط وحظائر التخزين، وسرعان ما أنشئت ثمانية معامل تكرير في بعض المدن، مثل: إلدورادو وأوجاستا وويتشيتا وبوتوين. ارتفع عدد سكان مدينة إلدورادو والمناطق المحيطة إلى ١٤٤٥٩ نسمة عام ١٩٢٠ بعد أن كان ٣٢٦٢ نسمة عام ١٩١٥؛ أي أن عدد السكان تضاعف أكثر من أربع

مرات خلال خمسة أعوام. شيدت المئات من الأكواخ ذات الغرفة الواحدة والخيام سريعًا، بعد أن أجر ملاك المنازل بإلدورادو الأفنية الخلفية لمنازلهم وحدائقهم، وبنوا منازل في المناطق الخالية لتأجيرها. كذا شيدت شركات النفط المدن في وقت قصير للغاية، وأطلقت عليها أسماء مثل أويل هيل وميديان، وكانت تزخر بملاعب التنس وحمامات السباحة وفرق البيسبول وأماكن مخصصة للخيل. أما المنازل المؤجرة بحقول النفط — التي كانت جدرانها مصنوعة من لب الخشب المضغوط ولا يوجد بداخلها أنابيب مياه أو كهرباء، ولا تحوي إلا موقدًا واحدًا — فكانت تؤجر بسبعة دولارات شهريًّا في المتوسط. كان الموظفون بحقل النفط يعملون بمناوبات تدوم اثنتي عشرة ساعة على مدار اليوم. وفتحت الصيدليات أبوابها حتى ساعات متأخرة من الليل. ثم هدأت العاصفة. في عام ١٩٢٥، العام الذي بلغت فيه مادلين الثالثة من عمرها وانتقلت عائلتها من مدينة بيرو إلى مدينة أوجاستا، وصل الازدهار ذروته. وبحلول الثلاثينيات، حولت شركات النفط اهتمامها إلى مكان آخر. تضاءل عدد سكان مقاطعة بتلر، ولم يبق بعد الازدهار الذي شهدته المنطقة سوى ذكريات الثراء الذي اجتاحها كقطار متجه نحو الغرب.

في ديسمبر ٢٠٠٨، زرت رالف دونام، شقيق ستانلي دونام وعم ستانلي آن، في دار للمسنين في مدينة سبرينجفيلد بولاية فيرجينيا، حيث يعيش مع زوجته بيتي. كان قد مر على وفاة ستانلي دونام ستة عشر عامًا، لذا توجهت إلى رالف، شقيقه الوحيد؛ بحثًا عن مساعدة. أخبرني رالف — اسمه بالكامل: رالف والدو إميرسون دونام — أن جده الذي درس الصيدلة بجامعة ولاية كانساس كان محبًّا لإميرسون؛ لذا سمى ابنه رالف والدو إميرسون دونام، ومرر ابنه الاسم بدوره إلى ابنه الأكبر. أخبرني رالف أيضًا أن أمه كانت تحب هنري مورتون ستانلي، الصحفي والمستكشف الذي عثر على ديفيد ليفنجستون بجانب بحيرة تنجانيقا عام ١٨٧١؛ لذا أطلقت على ابنها الثاني اسم ستانلي. كان رالف، الذي يكبر شقيقه ستانلي بعام ونصف، أكثر جدية في دراسته وأقل تفاخرًا من شقيقه. تخرج في مدرسة إلدورادو الثانوية عام ١٩٣٤، وأراد أن يصير معلمًا. تخصص في الرياضيات في كلية المعلمين بجامعة ولاية كانساس في مدينة إمبوريا وحصل على درجة الدكتوراه في علم النفس التربوي من جامعة كاليفورنيا في بركلي عام ١٩٥٠. حاضر في كليات في جنوب الولايات المتحدة، ثم عمل في مكتب الأنشطة الخاص بالعاملين بالبحرية الأمريكية، وتولى مهام التدريب والتأهيل الخاصة ببرنامج صواريخ بولاريس. ثم عمل في وكالة

الطيران الفيدرالية، ثم في هيئة التعليم، التي أصبحت فيما بعد وزارة التعليم. وخدم في الجيش برتبة ملازم أثناء الحرب العالمية الثانية وكان في نورماندي ومنطقة نهر الراين بعد إنزالات نورماندي العسكرية، وظل ضمن جنود الاحتياط بعد ذلك، وتقاعد وهو برتبة مقدم. أثناء تدريبه على إطلاق النار السريع باستخدام بندقية من طراز إنفيلد، أذهل رقيب الجيش عندما أفرغ مشطي ذخيرة في حوالي خمس وثلاثين ثانية وفي كل مرة كان يصيب الهدف بكل دقة. كان قد تعلم من أبيه وهو في سن السابعة كيفية إطلاق الرصاص من بندقية عيار ٢٢ بتعبئة يدوية بعد كل طلقة.

يأتي الجانب المأسوي في طفولة ابني دونام عندما ذهبا في رحلة صيد مع أبيهما. وصل رالف دونام الأب، الذي ولد في مدينة أرجونيا بولاية كانساس عام ١٨٩٤، إلى ويتشيتا في عمر العشرين وتزوج روث لوسيل أرمور في العام التالي. وفقًا لتصريح الزواج الخاص بهما، الصادر من محكمة الإرث والوصايا بمقاطعة سيدجويك في أكتوبر عام ١٩١٥، كانت روث حينئذ في الثامنة عشرة من عمرها. لكن كتب على شاهد قبرها بمقبرة صانسيت لونز في إلدورادو، حيث دفنت بعد ذلك بأحد عشر عامًا، أنها ولدت عام ١٩٠٠. إذا صح ذلك، فإنها لم تكن بلغت السادسة عشرة من عمرها عند زواجها. أنجبت ابنها الأول، رالف، عام ١٩١٦، ثم أنجبت ستانلي بعد عام ونصف، في عام ١٩١٨. كان أبوهما رجلًا أنيقًا ومغامرًا، كما يقال في محيط عائلته. تُظهر سيرته الوظيفية أنه كان دائم الحركة، ففي بطاقة التسجيل العسكرية التي استكملها في يونيو عام ١٩١٧، يصف نفسه بأنه صاحب مقهى في ويتشيتا. وقد أدرجته سجلات مدينة إلدورادو على أنه يعمل في قسم المبيعات في شركة إلدورادو جاراج. وبعد بضع سنوات من ذلك، أسس متجرًا للسيارات وورشة ومرأبًا في مدينة توبيكا. وعندما فشلت تلك المشروعات، أدار صيدلية مع والديه في ويتشيتا. ذُكر في نعيه الذي نشر في صحيفة ويتشيتا إيجل عام ١٩٧٠ أنه موظف متقاعد بشركة بوينج. كان ذلك نمطًا لا يختلف عن النمط الذي سينتهجه ابنه الأصغر، ستانلي، بعد سنوات. ولعله مثال بعيد لحب التنقل والتجوال الذي قالت مايا سوتورو إنج يومًا إنها ورثته عن أمها المغامرة؛ ستانلي آن.

في عيد الشكر عام ١٩٢٦، سافرت عائلة دونام؛ رالف دونام وزوجته روث وولداهما، من منزلهما في توبيكا إلى مدينة ميلفيرن للصيد وقضاء إجازة مع شقيق وشقيقة رالف الأب. نشرت تفاصيل هذه الرحلة في الصفحة الأمامية لجريدة توبيكا ستيت جورنال ظهيرة اليوم التالي. دب «شجار» بين رالف الأب وزوجته روث بعد

أن وصلا إلى ميلفيرن، كما ذكر المقال. وعندما غادر رالف الأب وشقيقه المنزل مع الصبيين للصيد، غادرت روث دونام، أم الصبيين، إلى توبيكا. شقت طريقها نحو صيدلية بالقرب من منزل عائلة دونام والمرأب الخاص بزوجها. أخبرت صاحب الصيدلية، جورج دابليو لورانس، أن كلبًا دهسته سيارة وأنها تريد شراء شيء يتناوله الكلب ليموت. كتبت الصحيفة: «نصحها لورانس بمادة الكلوروفورم. لكن أخبرته روث أنها لا تريدها، لأن رائحة الكلوروفورم تشعرها بالغثيان. وفي النهاية أقنعت لورانس بأن يبيع لها عشر حبات من سم الستركنين. قال لورانس إنها مكثت عدة دقائق، وبدت روحها المعنوية مرتفعة للغاية وكانت تمزح مع صاحب الصيدلية.»

في مساء ذلك اليوم، لمح صاحب متجر طلاء سيارات في نفس المبنى الموجود فيه مرأب رالف دونام وجود روث في المكتب، كانت تكتب على ما يبدو عندما ذهب لترك سيارته هناك. وبعد نصف ساعة، رآها جورج لورانس الذي ذهب لإيقاف سيارته في المرأب نفسه. على الجانب الآخر، عاد رالف من الصيد وعلم أن زوجته غادرت، فعاد إلى توبيكا، لكنه لم يجد أحدًا بالمنزل، فبدأ بالبحث عن زوجته. وقبل أن تدق الساعة الثانية صباحًا بقليل، عثر على جثة زوجته ملقاة على أرض حجرة المكتب الموجودة بالمرأب، كما جاء في المقال. حضرت سيارة إسعاف لأخذ الجثة إلى مستشفى سانت فرانسيس، وذكرت الصحيفة على لسان المحقق في أسباب الوفاة أن روث دونام ماتت منذ ما يتراوح بين عدة دقائق إلى ساعتين، وأن موتها ناتج عن الانتحار. وتركت خطابًا تقول فيه إنها تناولت السم لأن زوجها لم يعد يحبها، كما جاء في الصحيفة. كانت تبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا آنذاك.

ظهرت رواية مختلفة لملابسات وفاة روث في اليوم نفسه في الصفحة الثانية من الصحيفة الصادرة في إلدورادو، حيث يعيش والداها، هاري أرمور وزوجته جابريل أرمور، مع شقيقة روث، دوريس، التي توجت في وقت سابق ملكة جمال إلدورادو. وفقًا لتلك الرواية، وهي الرواية التي تناقلها الناس منذ ذلك الحين، ماتت روث نتيجة لتسممها بمادة التومين في منزلها بتوبيكا. ذكرت الصحيفة أنها تحدثت هاتفيًّا مع والديها قبيل ساعات من موتها: «وكانت في أفضل حالاتها الصحية على ما يبدو». خاض مقال نشر في جريدة ويتشيتا إيجل في التفاصيل أكثر وقال: «كانت السيدة دونام في حالة جيدة حتى ساعة متأخرة من ليل الخميس، ومن المعتقد أن طعامًا تناولته في عشاء عيد الشكر هو ما أدى إلى وفاتها.»

ذهب ستانلي دونام، وهو في الثامنة من عمره، وأخوه رالف في العاشرة، للعيش مع جديهما لأمهما، كما فعل حفيد ستانلي، باراك أوباما، وهو في العاشرة من عمره بعد خمسة وأربعين عامًا. أما والدهما، فقد انتقل إلى ويتشيتا لإدارة صيدلية مع أبيه، وعاش بجوار والديه في شقة فوق الصيدلية. على ما يبدو، تساءل الصبيان لماذا لا يعيشان مع أبيهما. قال لي رالف دونام: «كانت إجابة أبي عن هذا السؤال أن جديَّ يحبانِنا بشدة وأنه لا ينوي أن يبعدنا عنهما. لكن الحقيقة أنه كان مفلسًا للغاية آنذاك، ولم يكن باستطاعته إعالتنا بصورة جيدة. كان جدي يعمل بوظيفة جيدة.» بعد أن تزوج أبوهما مرة أخرى وأنجب طفلين آخرين، لم يعد ستانلي ورالف يريانه إلا فيما ندر. قال رالف: «كنا نزوره بين الفينة والفينة عندما نكون في ويتشيتا أو بالقرب منها، لكن نادرًا ما كان يحدث ذلك.» وعندما سألته هل التقى هو وستانلي بأختيه من أبيه آنذاك، قال: «كلا، مطلقًا.»

أثناء استرجاعه لتلك الفترة التي مضى عليها ثمانون عامًا، مر مرور الكرام على ذكر وفاة والدته ولم يذكر شيئًا عن انتحارها. أخبرني أن والدته ماتت، وحل الكساد الكبير، وانهار عمل والده، وانتقل هو وستانلي للعيش مع جديهما في إلدورادو. وعندما جئت على ذكر ما نشر في مقال صحيفة توبيكا، قال ببساطة: «لم أكن تجاوزت العاشرة من عمري. علمت بقصة تسممها بالتومين. كان ذلك احتمالًا واردًا.» علم أن والدته تركت رسالة، لكنه أخبرني أنه لم يعرف فحواها قط. بدا أنه احتفظ بذاكرة طفل صغير غير واضحة عن ذلك اليوم، فقد ركز على التفاصيل الصغيرة وتناسى الحدث المأساوي الرئيسي. قال: «في واقع الأمر، علمت أن أمي ذهبت إلى المستشفى وماتت هناك. حضر جداي، وسعدنا برؤيتهما بالطبع. لم ندرك أن أمنا في المستشفى أو شيئًا من ذلك القبيل. كنا قد رأينا لعبة، كانت لعبة من ألعاب الحظ على ما أذكر، وهي لعبة العم ويجيلي. أعطيانا بعض النقود لنذهب إلى المتجر لشراء لعبة العم ويجيلي. ولدى عودتنا، قيل لنا إن أمنا ماتت.»

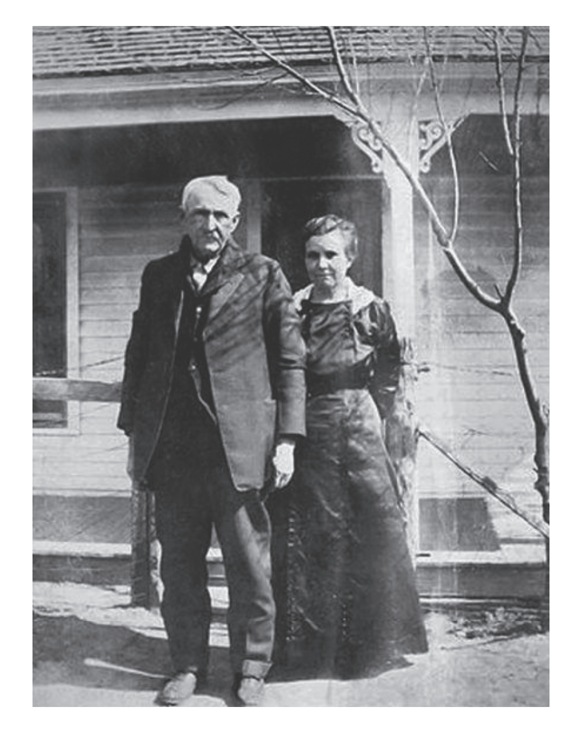
انتقل الصبيان إلى ما سيصبح — مع وصولهما — منزلًا يعيش به أربعة أجيال. يعيش في المنزل الجدان وخالة الصبيين دوريس والجد الأكبر كريستوفر كولومبس كلارك، الذي شارك في الحرب الأهلية، وكان آنذاك في أوائل الثمانينيات. قال رالف دونام: «كانت عائلة أرمور تشتغل بالتدريس، لكن السيد أرمور، الذي كان عاشقًا للرياضيات والألغاز الرياضية، رأى أن باستطاعته كسب المزيد من المال من خلال العمل كعامل مضخات في حقول النفط، مستعينًا بمهاراته في الرياضيات في حساب

مستويات النفط في الخزانات. عمل في نوبات تدوم اثنتي عشرة ساعة على مدار جميع أيام الأسبوع.» وبعد بضعة أعوام من انتقال رالف وستانلي للعيش مع جديهما، انتقلت عائلة أرمور، بدون الخالة دوريس، إلى منزل بالإيجار بمساكن حقول النفط يبعد ثمانية أميال من إلدورادو عبر طريق حصوي. تذكر رالف — الذي أخبرني أنه ورث اهتمامه بالرياضيات والتعليم من أجداده — بمشاعر حب حياته وسط أسرته الجديدة. كانت جدته — التي بلغت من العمر أربعين عامًا تقريبًا حين ماتت ابنتها — صغيرة إلى حد مكنها من أن تضطلع بدور الأم لحفيديها؛ مثلما ستكون مادلين عندما سينتقل حفيدها باراك أوباما للمرة الأولى للعيش معها هي وجده ستانلي في هونولولو عام ١٩٧١. كانت دوريس أرمور في سن صغيرة تسمح لها بأن تضطلع بدور شقيقة الصبيين. تولد لدى ستانلي ورالف شغف بالألعاب اللوحية، وبالأخص لعبة الداما، ورثاه عن جدهما وجدهما الأكبر. وبعد عدة سنوات، بعد أن صار ستانلي ومادلين محترفين في لعبة البريدج في هاواي، سيبدي ستانلي رغبته في لعب الداما مع رالف في زياراته المتكررة لمنزل رالف في فيرجينيا. في المرة الأخيرة التي لعبا فيها معًا، كان الوقت متأخرًا، وشعر رالف بالتعب، وكان ستانلي مرتبطًا بموعد الطائرة. اقترح رالف التوقف عن اللعب، لكن كان ستانلي متأخرًا بفارق شوط. يقول رالف متذكرًا: «أصر على الاستمرار في اللعب، لذا ركزت بشدة في اللعب، وهزمته ثلاث مرات. بعد ذلك انصرف.»

كان لستانلي شعر داكن، وكان وسيمًا مثل أبيه. سبق ستانلي أخاه رالف في البلوغ، وكان متباهيًا بوسامته. في سن الثالثة والعشرين، بلغ طوله ستة أقدام تقريبًا ووزنه مائة وخمسة وستين رطلًا، وفقًا لسجله العسكري. كان أكثر ملامحه لفتًا للنظر هو ذقنه الطويل المدبب، وهو ما سترثه ستانلي آن وستورثه لابنها. في الصور الشخصية للطلاب في الكتيب السنوي لمدرسة إلدورادو الثانوية عام ١٩٣٦، ذا جوشر، بدا ذقن ستانلي أطول مرتين من ذقن أي طالب آخر. وشعره الأسود الكثيف منسدل إلى الخلف في تموجات لامعة، وفمه كان صغيرًا. في بعض الأحيان، تجد رأسه مائلًا إلى الجانب قليلًا على نحو غريب، وهي سمة مألوفة بالعائلة لاحظتها أول مرة حين كنت أشاهد ذات يوم فيديو لستانلي آن سُجل قبل وفاتها ببضع سنوات. في تلك اللحظة، تذكرت أنني لاحظت حركة الرأس المائلة هذه في باراك أوباما. قال لي رالف دونام عن حفيد شقيقه: «دعيني أخبرك بشيء، عندما يلقي خطابًا فإنه، كما تقول مادلين «يشبه ستانلي تمامًا غير أنه أسود البشرة».»

لم يكن ستانلي في صباه طفلًا تقليديًّا، على حد تعبير رالف. كان رالف ضمن فريق الكشافة، وسيصير فيما بعد رئيس فريق الكشافة، وكان الأول على صفه في معهد إلدورادو. أما ستانلي، الذي يصغر شقيقه بعام ونصف، فقال عنه رالف: «كان طفلًا كثير الحركة ولعوبًا.» ذكر لي رالف أن ستانلي أحب فعل الأشياء الغريبة، ربما لأنه أراد لفت الانتباه إليه. وهو في سن الثالثة، فر من المنزل مع صبي بالمنزل المجاور. كان يسعى وراء المشكلات سعيًا. قال رالف: «يمكنني وصفه بأنه كان متمردًا على التقاليد، فلم يرغب في اتباع القواعد لمجرد أنها قواعد. أحب أن يكون لكل قاعدة سبب، وأحب أيضًا أن يكون جريئًا إلى حد ما.» كان ستانلي فتى متكلفًا في ملبسه بالنسبة لشاب مراهق في مدينة كانساس الصغيرة. رأى البعض أنه ولد ليصير رجل مبيعات؛ فباستطاعته تجاذب أطراف الحديث مع أي شخص تقريبًا. كان متشبثًا برأيه، وفي بعض الأحيان يكون مغرورًا ومتعجرفًا. وكان سريع الغضب. قال رالف: «إذا عارضه أحد، فقد يظهر ردة فعل عنيفة للغاية، وقد يكون مزعجًا بحق.» وكان راويًا رائعًا للقصص، بعضها بدا الهدف منه إظهار خبرته في الحياة وثقافته الرفيعة. لم يكن بمعزل عن إضافة بعض التفاصيل المثيرة إلى حكاياته، حتى إنه كان يختلق القليل منها. على سبيل المثال حكى لنا أنه وصديقه استقلا سيارة الرئيس هربرت هوفر. كان هوفر في زيارة لإلدورادو وكان في طريقه إلى الساحل الغربي، واحتشد أهل المدينة جميعًا لمشاهدة الرئيس. لم يذكر ستانلي وصديقه في روايتهما للحدث بعد ذلك مرور موكب الرئيس، قالا إنهما كانا يسيران على الطريق السريع حينما توقفت سيارة الرئيس ودعاهما إلى الركوب. وبعد أن ركبا السيارة، أشعل صديق ستانلي سيجارة. أخبرني رالف دونام أن الرئيس هوفر، كما جاء في رواية شقيقه، انحنى وأمسك بعقب السيجارة عندما انتهى صديق ستانلي. وقال: «أعقاب السجائر توضع هنا.»

ذكر رالف أن لديه شكوكًا حول قصة أخرى من قصص ستانلي، جاءت في كتاب «أحلام من أبي». وفقًا لتلك القصة، طُرد ستانلي من المدرسة الثانوية وكان في الخامسة عشرة من عمره لأنه لكم ناظر المدرسة في أنفه، وقضى السنوات الثلاث التالية يعمل في وظائف غريبة، ويتنقل بين عربات القطارات المتجهة إلى شيكاجو وكاليفورنيا ثم يعود أدراجه مرة أخرى، «وأثناء تنقلاته انخرط في شرب الخمر ولعب الورق وإقامة علاقات غرامية». تذكر رالف دونام هذا الأمر لكن بصورة مختلفة إلى حد ما. قال إن ستانلي تسرب من مدرسة إلدورادو الثانوية عام ١٩٣٥



شكل ١-١: توماس ومارجريت ماكاري، الجدان الأكبران لآن دونام، في بيرو بولاية كانساس.[1]

وكان في السنة النهائية حينذاك، على الأرجح لأنه لم يكن يبلي بلاءً حسنًا على المستوى الدراسي، وعاد إليها بعد عدة سنوات لاستكمال دراسته والتخرج. قال رالف: «لا أجزم أنه لم يقع في مشكلة حين ترك المدرسة وربما استدعاه الناظر، لكنني أظن أنه اختلق تلك القصة. لا بد أن أخي أخبر باراك بتلك القصة. لم يكن أخي يتحرى الصدق في تلك الأمور على الدوام.»

كانت جدة ستانلي آن لأمها، ليونا، السادسة بين سبعة أطفال لمارجريت بيل رايت وتوماس كريكمور ماكاري. ترعرعت ليونا في مزرعة عائلة ماكاري بمدينة بيرو وأصبحت معلمة، مثل شقيقتها التي لم تتزوج، روث، والتي عملت بالتدريس على مدى خمسين عامًا في ولاية كانساس، ومدينة كوميرس، بولاية أوكلاهوما. حقق شقيقهما، فرانك دابليو ماكاري — الذي تسلق أبراج الرفع التي تقام عند آبار النفط وهو طفل في مدينة بيرو وأصبح فيما بعد صيدليًّا ومهندسًا كيميائيًّا ثم نائب

رئيس شركة نفط — قدرًا من الشهرة في رشده لممارسته هواية غير تقليدية. فعلى مدار خمسة وأربعين عامًا، صمم نموذجًا مصغرًا ومتكاملًا، مصنوعًا من الزجاج في أغلبه، لمصفاة تكرير نفطية، وأدخل عليه التعديلات وحدثه باستمرار. تنقل النموذج المصغر لمصفاة التكرير، الذي كان يضم وحدتي تكسير حفزي وكان ينتج الغاز من النفط، بين المدارس الثانوية والكليات عبر أرجاء البلاد. قالت لي ابنة فرانك ماكاري، وتدعى مارجريت ماكاري وولف في يوم قائظ من أيام الصيف ونحن في مطبخها بمدينة هَتشينسون بولاية كانساس: «كرس أبي نفسه للتعليم إلى جانب ورعه وحبه للنظافة.»

حلقت ليونا أيضًا بعقلها خارج الجدران الأربعة للمنزل الصغير بأوجاستا حيث ربت هي وزوجها، ويدعى رولا تشارلز باين، ابنتهما مادلين، أم ستانلي آن، وأبناءها الثلاثة في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي. بدت ليونا في عيون أطفالها امرأة شديدة الذكاء، فكانت تصطحبهم إلى الخارج تحت سماء الليل الممتدة وتعلمهم مواقع النجوم. ملأت المنزل بالكتب الجيدة وخططت لنزهات بالسيارة أثناء عطلة زوجها الصيفية التي كانت تمتد شهرًا، رحلات إلى ساحات معارك الحرب الأهلية في ميزوري، ومتنزه يلوستون بارك، ومنطقة بلاك هيلز، وأركنساس وكنتاكي وتنيسي ومسيسيبي ولويزيانا وواشنطن. وفي صيف عام ١٩٣٤، في خضم أزمة الكساد الكبير وقبل أن يولد باين الأصغر، ذهبت العائلة في السيارة إلى شيكاجو ومعهم الخالتان غير المتزوجتين اللتان تشتغلان بالتدريس، لحضور المعرض العالمي. قال لي تشارلز باين شقيق مادلين: «أعتقد أن ذاك المعرض العالمي شكل نقطة تحول لثلاثتنا ونحن أطفال. مثلت تلك الرحلة تجربة مختلفة تمامًا عما عهدناه في مدينة أوجاستا بكانساس، لقد فتحت أعيننا على العالم حقًّا؛ إذ شاهدنا فنونًا وعلومًا إنسانية وأمورًا فكرية. أذكر تناولنا الغداء في مطعم في الهواء الطلق يقدم الأطعمة والمشروبات الألمانية، كانت جميع الراقصات يتحدثن بلهجة ألمانية. وفي الجناح السويدي، شاهدناهم يصنعون سكرية وإبريقًا للقشدة من الخزف بتصميم أنيق وعصري. لا نزال نحتفظ بهما، وهما في غاية الأناقة. أذكر رؤية نماذج سفن — لا أذكر إذا كان متحف فيلد للتاريخ الطبيعي مفتوحًا آنذاك أم لا — كانت مصممة بتفاصيل دقيقة بدءًا من البراغي والمقابض، وتعجبت من أن شخصًا يستطيع صنع ذلك. وعلى الأرجح تولد لدينا ونحن أطفال دافع للخروج من عالم كانساس الصغير

إلى عالم أكثر تعددية. أذكر أنني حاولت قص تلك التجربة على بعض أصدقائي ولكنني عجزت عن نقل روعة ذلك الحدث لفظيًّا.»

قال تشارلز إن تلك الرحلة ساهمت على الأرجح في التأكيد على رحيله ورحيل أشقائه من مدينة أوجاستا «في أسرع وقت ممكن».

نشأ رولا تشارلز باين، والد مادلين، في مزرعة عائلته في مدينة أوليثا، ثم عمل مسئول حسابات في شركة سينكلير أويل آند جاس، وعمل بعد ذلك موظفًا محليًّا في مدينة أوجاستا. (يقال إن اسم رولا، وهو على نفس وزن اسم «والا» صنف ضمن أكثر خمسمائة اسم من أسماء الصبية شيوعًا قرب نهاية القرن التاسع عشر، لكن رولا باين لم يحب اسمه. وكان يستخدم في تعاملاته الحرفين الأولين من اسمه: آر سي، أو يستخدم باين فقط، وهو الاسم الذي كانت تخاطبه به ليونا.) يبدو أن آر سي باين، وهو ممن خاضوا الحرب العالمية الأولى، قابل ليونا ماكاري في مدينة إندبندنس حيث كانا يعيشان ويعملان. تسلما تصريح الزواج الخاص بهما في ديسمبر عام ١٩٢١، وولدت ابنتهما الأولى، مادلين لي، في ٢٦ أكتوبر عام ١٩٢٢ في مدينة بيرو. وعندما وُلد تشارلز ومارجريت آرلين بعد عدة سنوات، كانت الأسرة قد انتقلت للعيش في مدينة أوجاستا، وكانت في السابق مجتمعًا يعيش على الزراعة لكنه تحول إلى المدنية بعد اكتشاف النفط، وتبعد ثمانية عشر ميلًا جنوب غرب إلدورادو. بحلول نهاية الحرب العالمية الأولى، كان هناك ثلاث مصافي تكرير في أوجاستا وبلغ عدد سكانها عشرة آلاف يعيشون في محيط خمسة أميال منها، من بينهم عائلات المسئولين بشركة النفط والعمال بحقول النفط، ومجموعة صغيرة من المكسيكيين ممن يعملون لدى شركة السكك الحديدية أتشيسن توبيكا آند سانتا في ريلواي ويعيشون في منطقة معزولة يحدها نهر والنت وشارع ساوث أوسيدج وخطوط السكك الحديدية لمقاطعة سانتا في. افتُتح طريق سريع بحارتين من القرميد إلى ويتشيتا عام ١٩٢٤، العام الذي هب فيه إعصار على المدينة، وهدم جزءًا من المدرسة الثانوية ودمر كنيسة كاثوليكية. قال جون باين، أصغر أبناء عائلة باين الأربعة الذي أمضى طفولته بالكامل في أوجاستا حتى انتقل والداه وهو في السنة النهائية في المدرسة الثانوية إلى مجتمع محلي صغير تابع لشركة نفطية تدعى ثرول، إنه لم يلتقِ بشخص أسود حتى التحق بالكلية في جامعة كانساس.

كان أغلب سكان مقاطعة بتلر من البيض المسيحيين حين نشأت مادلين باين في أوجاستا وستانلي دونام في إلدورادو في العشرينيات والثلاثينيات. انتقل

الأشخاص المكلفون باستقطاب أفراد جدد لجماعة كو كلاكس كلان إلى المقاطعة في أوائل العشرينيات، ووصفوا الجماعة بأنها جماعة خيرية مسيحية وطنية. وجد روكسي أولمستيد، الذي نشأ في مقاطعة بتلر وأجرى بعض الأبحاث عن الكو كلاكس كلان بعد ذلك، أن تلك الجماعة تقدمت نحو الشمال من أوكلاهوما، لاستقطاب ما سمي بمواطنين «أمريكيين أصليين بيض بروتستانت وليسوا يهودًا». التقى الأعضاء المحليون بالجماعة في الكنائس، وعقدوا حفلات انضمام أعضاء جدد وهم يرتدون معاطف ويمتطون الخيول وحرقوا الصلبان. ذكر روكسي أولمستيد في بحث متوافر في الجمعية التاريخية لمقاطعة بتلر أنهم صبوا تركيزهم على القضايا الأخلاقية، مثل «الأزواج والزوجات الخائنين في أوجاستا». كان هناك موكب احتفالي لفرع الجماعة في أوجاستا في سبتمبر عام ١٩٢٣، كذلك جذب اجتماع عقدته الجماعة في إلدورادو في أغسطس عام ١٩٢٤ ثلاثة آلاف شخص. وتغير اسم «كرنفال حبوب الكافير» إلى كرنفال «كو كلاكس كلان» عام ١٩٢٤ فقط. تقدم ويليام آلن وايت، الذي كان يكتب مقالات يهاجم فيها الجماعة منذ عام ١٩٢١ في صحيفة إمبوريا جازيت، كمرشح مستقل لمنصب حاكم الولاية عام ١٩٢٤، واعتمدت حملته الانتخابية إلى حد بعيد على مناهضة تلك الجماعة. حل آلن وايت في المركز الثالث بين ثلاثة مرشحين، لكن ذكر المؤرخون أن حملته أضعفت من الجماعة. وفي العام التالي، منعت المحكمة العليا بالولاية الجماعة من ممارسة نشاطها في ولاية كانساس.

قضت مادلين معظم طفولتها في منزل عائلتها ذي البنية الخشبية المكون من طابق واحد، وكانت تمتلكه شركة سنكلير أويل آند جاس، وكان بجوار المكتب الذي يعمل به أبوها، آر سي باين. كان المنزل يضم ثلاث غرف للنوم وحمامًا واحدًا وغرفة معيشة وغرفة طعام ومطبخًا، وشرفة خلفية مغلقة، كان ينام فيها تشارلز فوق سرير متنقل في بعض الأحيان. كانت مساحة المنزل صغيرة، اعتادت الخالة روث ماكاري، المعلمة، الحضور إليهم كل صيف وقضاءه معهم، كانت تنام فوق سرير صغير في غرفة الفتيات. عاشت ستانلي آن، وهي طفلة رضيعة لا تزال تحبو، إبان الحرب العالمية الثانية في ذلك المنزل حينما كان أبوها في الجيش وأمها كانت تسافر إلى ويتشيتا يوميًّا للعمل. كان يوجد خلف المنزل ساحة تخزين أنابيب وملعب لممارسة «كرة السلة تحت ضوء القمر». أما لعبة البيسبول، فكانت هناك قطعة أرض فارغة بالجوار لممارستها. تذكر جون باين مساعدته لأمه في غسل الملابس في ماكينتي غسيل مستديرتين ماركة مايتاج مزودتين بآلة عصر، وتذكر أيضًا رؤيته

للملاءات وهي تتجمد في الشتاء. كان السير ممتعًا بالطرق القرميدية المؤدية إلى المدينة، التي تصطف الأشجار على جانبيها، حيث توجد صيدليات، وماكينات تفريغ المشروبات الغازية، وأكشاك، البعض منها يضم أجهزة سماع الأغاني بالعملات النقدية تعج بأغاني أواخر الثلاثينيات لجلين ميلر وبيني جودمان وتومي دورسي، حتى إنه كان يوجد بها ساحة صغيرة للرقص. في تلك الأكشاك أيضًا، لعب بعض طلاب الثانوية البريدج. إبان فترة الكساد الكبير، ارتاد سكان أوجاستا دور السينما عدة مرات أسبوعيًّا. عُرضت أفلام رعاة البقر في دار عرض أيزيس في العطلات الأسبوعية، ودار عرض أوجاستا، التي افتتحت في الصيف الذي بلغت فيه مادلين الثانية عشرة من عمرها، وكان أول دار عرض يضاء بأسره بالنيون. تهافت الناس على حضور أفلام من بطولة بيتي ديفيز، التي تعلمت منها الفتيات المراهقات مظاهر الرقي وتعلمن منها كيفية الإمساك بسيجارة لإضفاء لمسة غاية في السحر. لفترة من الوقت، حضر معلم من صالة لتعليم الرقص في ويتشيتا لتعليم الكثير من الأطفال أداء الرقصات الثنائية ورقصة الجيترباج على خشبة المسرح. وفي أيام الأحد، اعتادت عائلة باين الذهاب إلى الكنيسة الميثودية. لم تكن عائلة باين من الفقراء — إذ كان السيد باين يعمل أثناء الكساد الكبير — لكن لم يتوافر لديهم الكثير من المال قط. عمل تشارلز، شقيق مادلين، في متجر بقالة عشرين ساعة أسبوعيًّا، وعمل بدوام كامل في الصيف طيلة دراسته بالمدرسة الثانوية. أخبرني أن شقيقه جون وصل إلى الصف الثامن في الدراسة على الأرجح قبل أن يرتدي «سراويل جاهزة مبتاعة من المتاجر»، إذ كانت ليونا تحيك الكثير من ملابس أطفالها. أخبرني تشارلز باين أيضًا، وهو مؤيد للحزب الديمقراطي طيلة حياته، أن عائلة أمه كانت تؤيد الحزب الجمهوري وأن أباه أيد الحزب الديمقراطي. تذكر تشارلز عائلته وهي تستمع إلى البث الإذاعي لحفل تنصيب فرانكلين دي روزفلت رئيسًا للولايات المتحدة عام ١٩٣٣ وبعد ذلك إلى سلسلة خطبه المسائية عبر موجات الراديو. وعندما ترشح ألف لاندون، وكان في ذلك الوقت حاكم ولاية كانساس، لسباق الرئاسة عن الحزب الجمهوري أمام روزفلت في انتخابات عام ١٩٣٦، أيدته عائلة باين: «كنا نلوح بأعلام مرسوم عليها زهرة عباد الشمس.»

لم تكن أوجاستا، التي يبلغ عدد سكانها عدة آلاف، مدينة منغلقة كالصورة النمطية التي تستحضرها مدن كانساس الصغيرة إلى الذهن. تدرج ماك جيلكسون، الذي نشأ في أوجاستا وكان يعرف كلًّا من مادلين باين في طفولتها وستانلي

دونام وهو مراهق، حتى عمل أستاذًا للهندسة الكيميائية في جامعة كاليفورنيا ومستشارًا في بلدان مثل بابوا غينيا الجديدة. أخبرني أن نصف زملائه بالمدرسة الثانوية غادروا أوجاستا في نهاية المطاف؛ إذ تلقى الطلاب الموهوبون على المستوى الأكاديمي التشجيع من معلميهم على ذلك. وعندما سألته متى شعر بالرغبة في الخروج من عالم مقاطعة بتلر، قال: «كان ذلك مسارًا إجباريًّا.» لم يترك أبناء جيل ستانلي ومادلين أوجاستا خلفهم فحسب، بل تخلوا عن آراء آبائهم السياسية أيضًا. كان آباء ماك جيلكسون أعضاءً في الحزب الجمهوري، وكذلك كان كل معارفهم. عندما ذهبوا إلى توبيكا لزيارة أحد أقاربهم الذي كان يعمل في مؤسسة صحفية يملكها عضو مجلس الشيوخ الجمهوري عن ولاية كانساس، آرثر كابر، تلقى ماك تعليمات من والده بألا يتفوه باسم روزفلت. لم يرق له ذلك النمط من الصرامة. قال لي: «رأيت ذلك الأمر بغيضًا. عندما كنت أواجه هذا الأمر، كنت أقول: «لن أفعل هذا».» ونظرًا لعدم وجود مدارس خاصة أو أبرشية، ارتاد جميع الطلاب بأوجاستا المدرسة الثانوية نفسها، أبناء رؤساء البنوك ومديري شركة النفط والأطباء والفلاحين وعمال حقول النفط على حد سواء. قال جيلكسون: «أعتقد أن هذا دفعني إلى أن أكون أكثر تأييدًا لمبدأ المساواة بين البشر من أي شيء آخر.» تمتع الأطفال الذين ترعرعوا في أوجاستا بفهم للاختلافات الطبقية. ارتادت فيرجينيا داشنر إيوالت، وهي ابنة مسئول عن مضخات نفطية ترعرعت في مساكن حقل النفط التابعة لشركة سينكلير جنوب غرب أوجاستا وشاركت في مسرحية طلاب السنة النهائية في مدرسة أوجاستا الثانوية مع مادلين، المدرسة الابتدائية هي وعشرون تلميذًا آخر في مبنى مدرسي مكون من حجرة واحدة لا يوجد بها سوى موقد كبير واحد يعتمد على الفحم للتدفئة. قالت فيرجينيا: «كان أبناء الريف مختلفين قليلًا.» كانت تشعر أحيانًا بشيء من الخوف من بعض الأطفال الذين نشئوا في أوجاستا.

علقت ليونا وآر سي باين آمالًا عظيمة على أطفالهما. تمنيا أن يتسم أطفالهما بالطيبة وأن يجدوا في مذاكرتهم ويحصلوا على درجات عالية وأن يعلو شأنهم في الحياة. قالت مارجريت آرلين باين، التي حصلت على درجة البكالوريوس من جامعة كانساس ودرجة الماجستير من كلية المعلمين بجامعة كولومبيا، ودرجة الدكتوراه من جامعة شيكاجو: «كانت لدى أمي تطلعات عالية، كانت غاياتها التي بثتها فينا أنه لا بد أن نلتحق بالكليات. ولا جدال في هذا الأمر.» وقال جون، الشقيق الأصغر لمادلين: «لا أظن أن والديَّ توقعا أن نمكث في كانساس، أعتقد أنهما انتظرا أن نحقق

الكثير من النجاح في الحياة، أن نلتحق بالكليات وبعد ذلك نبذل ما بوسعنا.» غير أن أزمة الكساد الكبير وظلال الحرب العالمية أثرا على حس الأطفال تجاه مستقبلهم. قال كليرنس كيرنز، وهو مؤرخ تخرج في مدرسة إلدورادو الثانوية عام ١٩٣٥، إنه لم يكن سوى القليل من الوظائف المتاحة عندما تخرجت دفعته حتى إن تسعة من زملائه أصبحوا قساوسة. وعمل الكثير غيرهم بالتدريس في مبانٍ مدرسية من حجرة دراسية واحدة عبر أرجاء كانساس. وقليلون هم من التحقوا بالكلية مباشرة. وبدا التخطيط بعيد المدى لا طائل منه. وقال ماك جيلكسون وهو يتذكر السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية والسنوات التي تخللتها: «كانت الأخبار التي تتوارد شهرًا بعد شهر سيئة على الدوام، كنت أخرج من المنزل لإحضار الصحيفة الصباحية في السابعة صباحًا وأنظر إلى العنوان الرئيسي، وكان على الأرجح: «الألمان يجتاحون النرويج، الألمان يجتاحون اليونان، الحلفاء يتراجعون، الأوضاع سيئة في شمال أفريقيا.» كان المستقبل غامضًا للغاية، لذا كان من السهل اتخاذ أي قرار دون قلق من عواقبه بعد عامين.» تزوج بعض الأحبة في وقت مبكر، راغبين بشدة في استمرار تلك الزيجات. واضطرت الفتيات اللائي توقعن الالتحاق مباشرة بالكليات بعد الثانوية إلى البحث عن عمل. قال تشارلز متذكرًا: «أذكر انزعاج مادلين من حقيقة أن بعض أصدقائها، ممن كانوا أكثر ثراءً منا، يخططون للالتحاق بكلية من الكليات المرموقة، وكانت تعلم أنها لا تستطيع ذلك، لذا كان تساؤلها: هل ستذهب إلى المعهد المحلي بعد الثانوية أم سيتعين عليها أن تعمل؟ شيء من هذا القبيل.» أما عن مصيره هو، فقال: «أدركت وأنا في الصف الدراسي السابع تقريبًا أن الحرب ستندلع وسأشارك فيها. لذا لم أفكر كثيرًا حقًّا في الالتحاق بكلية، لأنني توقعت أنني سأكبر ثم أذهب إلى الحرب. وفي حقيقة الأمر، لم أتوقع أن أنجو بحياتي.»

كانت تجمع آر سي باين علاقة مميزة بابنته الكبرى، كما قال شقيقها جون، الذي يصغرها بخمسة عشر عامًا. كانت الطفلة الوحيدة التي ولدت في مدينة بيرو قبل أن تضطرهم ظروف عمل السيد باين إلى الانتقال إلى أوجاستا. ذكر تنويه منشور في صحيفة سيدان تايمز ستار في ٢٢ نوفمبر عام ١٩٢٢: «آر سي باين وزوجته يحتفلان بقدوم مادلين لي الصغيرة، تزن ثمانية أرطال.» كانت فتاة ذكية ومرحة وقوية الإرادة. قال تشارلز باين إنها كانت تحقق درجات عالية في الدراسة إذا ما أرادت ذلك. لكن أحيانًا كانت تقضي فترة بعد الظهيرة بعد انقضاء اليوم الدراسي مع أحد أصدقائها، مما يتسبب في نشوب شجار بينها وبين أمها التي كانت

تنتظر من أبنائها بذل قصارى جهدهم طوال الوقت، وليس فقط وقتما يشعرون برغبة في ذلك. تظاهرت مادلين النحيلة والمنظمة والمتأنقة بنوع من الحنكة في الحياة، على الأقل مع أشقائها. قال لي تشارلز: «دائمًا كان لمادلين وهي في المدرسة الثانوية عشاق، عادة اثنان وأحيانًا ثلاثة عشاق مختلفين. لم تكن بارعة الجمال، بل كانت متوسطة الجمال، وكانت نشيطة ومفعمة بالحياة ومرحة. في واقع الأمر، ضاقت ذرعًا بعشاقها المتعددين؛ فقد كانوا ضيقي الأفق، أما هي فقد نزعت إلى اعتبار نفسها مثل بيتي ديفيز.» وبحلول السنة النهائية لها في المدرسة الثانوية، والبلاد غارقة في الكساد الكبير وشبح الحرب يلوح في الأفق، بدت فرص مادلين في استكمال مشوارها التعليمي محدودة، على الأقل على المدى القريب. قال تشارلز: «أعتقد أنها كانت تتطلع إلى حياة أكثر تشويقًا، أرادت الفرار من البلدة الصغيرة بكانساس. أعتقد أنها لم تتوقع المستقبل الذي ينتظرها حقًّا. لم تر شيئًا بخلاف الذهاب إلى الكلية والحصول على شهادة في التدريس، وهو ما رأت أمي أنها قادرة عليه، لأن ذلك ما فعلته هي. إما ذلك أو أن تعمل في متجر للملابس.»

ربما بدا ستانلي دونام، الشاب المختال والمحنك ظاهريًّا، الشخص الملائم تمامًا. بعد أن تسرب من المدرسة الثانوية، سافر بعض الوقت. وفقًا لما قاله رالف، ذهب ستانلي، الذي يكبر مادلين بأربعة أعوام، إلى كاليفورنيا وأمضى هناك بعض الوقت مع صديق من كانساس صار فيما بعد مؤلفًا في هوليوود. يقول آخرون إنه عاد إلى كانساس وفي جعبته قصص عظيمة عن قضائه وقتًا بصحبة جون شتاينبيك وغيره الكثير من المؤلفين المسرحيين وكتاب الثلاثينيات بكاليفورنيا. بدا أنه ترك انطباعًا، على الأقل لدى مادلين، أن في جعبته آلاف المسرحيات وأن أمامه فُرَصًا لامتهان العمل الأدبي، حتى وإن كان يعمل آنذاك في مجال البناء في موقع معمل تكرير سوكوني في أوجاستا. تقول آرلين باين متذكرة: «كان يؤلف المسرحيات وينظم الأشعار، وكان يحضر إلى منزلنا ليقرأها علينا. كان ذلك أمرًا مثيرًا للإعجاب لمادلين بالتأكيد.» على الرغم من أن إلدورادو وأوجاستا كانا خصمين لدودين في لعبتي كرة القدم الأمريكية والبيسبول، كان من الشائع أن يواعد فتية من إلدورادو فتيات من أوجاستا والعكس بالعكس. وعندما سألت رالف دونام عما جذب مادلين إلى شقيقه، قال: «لقد كان شابًّا جذابًا ولم يكن يتحرى ...» توقف في منتصف الجملة، وغير مسار كلامه «لقد كان شابًّا طيبًا.» وعندما سألته عما كان سيقوله، استطرد بحذر وقال: «حسنًا، لم يكن ستانلي يحكي الأشياء كما كانت تحدث بالضبط على الدوام،



شكل ١-٢: مادلين وستانلي دونام.

كثيرون يفعلون ذلك. عندما يتودد المرء إلى فتاة، يحاول في البداية إظهار الجانب الطيب من شخصيته ويتحدث عن آماله وطموحاته وما إلى ذلك.» وعندما طرحت السؤال نفسه على جون باين، ضحك وقال: «آه، تعلمين ما كان الحال عليه في كانساس في الثلاثينيات من عواصف ترابية وكساد عظيم، فضلًا عن العيش في بلدة صغيرة بالولايات المتحدة. أظن أنها رأت في ستانلي وسيلة للخروج من كانساس.»

لم ينبهر والدا مادلين بستانلي. نظرا إليه باعتباره رجلًا ودودًا وباحثًا عن المتعة؛ أي النقيض لعائلة باين، كما أخبرني جون. وصف أوباما موقف عائلة باين في مذكراته، مستخدمًا اللقب الذي كان يخاطب به هو ومايا جدتهما: «في المرة الأولى التي أحضرت فيها توت جدي إلى المنزل ليقابل أسرتها، رمق أبوها شعر جدي الأسود الأملس المنسدل إلى الخلف وابتسامته العريضة الدائمة التي تنم عن الحكمة بنظرة ثم عبر عن تقييمه الصريح قائلًا: «إنه أشبه بمهاجر إيطالي».» أدركت مادلين رفض والديها. وفي مساء حفل عشاء طلاب الثانوية بأوجاستا في مايو عام ١٩٤٠،

تسللت مادلين، وكانت في السابعة عشرة من عمرها، مع ستانلي، وكان يبلغ اثنين وعشرين عامًا، من الحفل وتزوجا سرًّا. أبقيا على أمر زواجهما سرًّا حتى تخرجت مادلين في الشهر التالي؛ سعيًا منهما لمنع والديها من إلغاء زواجهما، على حد ظن بعض زملائها بالمدرسة. وصلت الأخبار رالف شقيق ستانلي بعد عدة شهور. كان تشارلز باين في معسكر للكشافة في الوقت الذي أعلن فيه خبر الزواج.

قال لي تشارلز: «شعر والداي بالحسرة لزواج ابنتهما من شخص لا يكنان له قدرًا كبيرًا من الاحترام، لكنهما تقبلا الأمر.» وفي محاولة لإخفاء شعورها بالسخط قدر المستطاع، بعثت ليونا باين ببطاقات بإعلان الزواج.

بعد عشرين عامًا من ذلك الحدث، لا بد أن مادلين باين تذكرت جموحها الرومانسي في شبابها، وزواجها السري، ورد فعل والديها، عندما علمت أن ابنتها وهي في السابعة عشرة حامل من رجل يكبرها سنًّا ذي شخصية جذابة، وستتزوج منه بعدها بعدة شهور. ربما اندهشت مادلين من أوجه الشبه بينها وبين ستانلي آن؛ كلتاهما فتاتان مراهقتان عنيدتان جرفهما حب رجلين ساحرين بدوا لهما أنهما يتمتعان بالحنكة وتوسما فيهما حياة بآفاق جديدة، واحتمال خوض المغامرات، وحتمية الفرار. لعلها تذكرت أيضًا أم ستانلي الراحلة، روث أرمور، التي فعلت أمرًا مماثلًا في سن أصغر من ذلك. لمن يسمع القصة للمرة الأولى، قد يبدو إعجاب ستانلي آن بطالب أسود قادم من كينيا وحملها منه وزواجها الطائش به انحرافًا يتعذر تفسيره عن تاريخ عائلتها الكانساسية التي يُفترض أنها عائلة محافظة تنتمي إلى السلالة البيضاء. لكن مادلين وستانلي أدركا أن ثمة واقعة سابقة متمثلة في قرار مادلين بتجاهل تحفظات والديها وعرقلتها أي نقاش عن مستقبلها بزواجها من ستانلي وفرارها إلى الساحل.

من قبيل المفارقة، ربما أدركت مادلين للمرة الأولى أن الحياة مع ستانلي قد تكون أقل وهجًا مما تصورت أثناء وجودها على ساحل المحيط الأطلنطي على الأرجح. فما إن انقضى العام الدراسي حتى اتجهت مادلين وستانلي المتزوجان حديثًا إلى كاليفورنيا، الجهة البديهية لأي كاتب طموح لديه الكثير والكثير من الأعمال غير المنشورة. لكن بعد أن استقرا في منطقة خليج سان فرانسيسكو، وجدت مادلين أنها مضطرة إلى العمل في وظائف صغيرة في أماكن العمل المعهودة، منها عاملة بمتجر للتنظيف الجاف، للمساهمة في دفع الإيجار، وذلك كما أخبرني شقيقها تشارلز. بعد ذلك بعدة سنوات، ستبدي ندمها الشديد لعدم التحاقها بالكلية، وستحرص

على أن تكون ابنتها، عندما واجهتها تغيرات مماثلة في ظروف حياتها، قادرة على استكمال دراستها. وستدعم مادلين أيضًا حفيديها ماديًّا لاستكمال تعليمهما في واحدة من أفضل المدارس الخاصة في هاواي. لكن أن تفكر مادلين خلال الفترة التي أمضتها في كاليفورنيا في استكمال دراستها لم يكن خيارًا مطروحًا؛ إذ كانت في حاجة إلى كسب المال. علاوة على ذلك، بعد هجوم بيرل هاربر في السابع من ديسمبر عام ١٩٤١، عادت هي وستانلي إلى كانساس، بعد ثمانية عشر شهرًا من رحيلهما عنها. بعد تفجير ميناء بيرل هاربر بستة أسابيع، وقبيل عدة أشهر من بلوغ ستانلي عامه الرابع والعشرين، استدعي إلى الخدمة العسكرية في الثامن عشر من يناير عام ١٩٤٢ كجندي في الجيش الأمريكي. وفقًا لسجلات تجنيده، كان مؤهله العلمي: «أربع سنوات في المدرسة الثانوية»، ووظيفته المدنية: «عازف أوبوا بفرقة موسيقية، أو بائع قطع غيار سيارات».

دفعت الحرب جنوب غرب كانساس إلى الخروج من الكساد الكبير مثلما فعل اكتشاف «بئر ستابلتون رقم واحد»، البئر المكتشف بحقل النفط في إلدورادو، إذ دفع ذلك الاكتشاف مقاطعة بتلر نحو الازدهار قبل ربع قرن. عززت أرباح الطفرة النفطية مجال صناعة الطائرات الناشئ في ويتشيتا، حيث ساهم رواد مجال الطيران أمثال كلايد فيرنون سيسنا ووالتر بيتش ولويد ستيرمان في فوز ويتشيتا بلقب «عاصمة الطيران في العالم». وظفرت شركة ستيرمان إيركرافت، وكانت تابعة في ذلك الوقت لشركة بوينج، بأول عقد عسكري ضخم عام ١٩٣٤. كذا عزز الهجوم على ميناء بيرل هاربر من قضية إلغاء مركزية الصناعة الدفاعية، وأصبحت ويتشيتا أحد أكبر مراكز الطائرات الحربية في البلاد. وفي عام ١٩٤١، شرعت حكومة الولايات المتحدة في تشييد مصنع جديد للطائرات في ويتشيتا واختارت شركة بوينج لإنتاج طائرات من طراز بي ٢٩ سوبرفورترس، الطائرة التي استُخدمت فيما بعد في الهجوم على اليابان. ارتفع عدد العاملين بمصنع بوينج إلى ٢٩٧٩٥ في ديسمبر عام ١٩٤٣، بعد أن كان ٧٦٦ قبل عامين ونصف، وفقًا لموقع وينجز أوفر كانساس، وهو موقع خاص بعلوم الطيران في كانساس. عمل المصنع على مدار الساعة، وتضاعف عدد سكان مقاطعة سيدجويك تقريبًا في غضون خمس سنوات. شيدت مجمعات سكنية مؤقتة ضخمة بأسماء مثل بلين فيو وبيتش وود. بلغ عدد سكان مدينة بلين فيو المجاورة لمصنع بوينج وحدها عشرين ألفًا. كان يوجد بمصنع بوينج ستة وخمسون فريق بولينج. وكان هناك ملعب جولف بتسع حفرات وملاعب للتنس

والريشة الطائرة ودفع الأقراص. وفرت الشركة حافلات لنقل العاملين لأماكن بعيدة مثل مدينة وينفيلد في كانساس ومدينة بونكا في أوكلاهوما. انتقل آخرون من وإلى المصنع بالاشتراك معًا في سيارة واحدة من أماكن مثل إلدورادو وأوجاستا. سيثبت فيما بعد أن طفرة صناعة الطائرات الحربية، شأنها شأن طفرة النفط، طفرة عابرة. ففي عام ١٩٤٥، بعد تعليق إنتاج الطائرات بي ٢٩، سرح مصنع بوينج ستة عشر ألف عامل عن العمل في يوم واحد. ثم أُغلق المصنع الجديد، وانخفضت العمالة بمصنع بوينج بويتشيتا إلى ألف عامل تقريبًا. لكن مع استمرار الحرب، ارتفعت الأجور، ومع اشتراك الرجال في الحرب، كان ما يقرب من نصف العمالة في مجال إنتاج الطائرات من النساء. يقال إن ثمانية عشر مليون امرأة دخلت ضمن القوى العاملة بين عامي ١٩٤٢ و١٩٤٥ على مستوى البلاد، وجاء نزول العديد منهن إلى العمل نتيجة للحملات الحكومية لاجتذاب ربات المنزل إلى أعمال بدوام كامل ذات صلة بالحرب. أضحت النساء مستقلات ماديًّا وتحملن مسئوليات الرجال في حالات عديدة للمرة الأولى. وكانت مادلين دونام جزءًا من ذلك التغيير.

بعد ذهاب ستانلي للحرب، انتقلت مادلين للعيش مع والديها في مدينة أوجاستا وانتقلت من وإلى محل عملها بسيارة مع زملائها؛ إذ عملت مفتشًا في نوبة العمل الليلية بمصنع بوينج في ويتشيتا. وصف الرئيس أوباما خلال حملته الرئاسية جدته في تلك الفترة بأنها «روزي عاملة البرشمة»، وهي صورة المرأة العاملة في المصانع أثناء الحرب العالمية الثانية التي تظهر مرتدية رداء العمل كما رسمها نورمان روكويل لغلاف مجلة ساترداي إيفننج بوست. لا بد أن أخلاقيات العمل المذهلة التي ستمكن مادلين بعد ذلك بعدة عقود من الترقي في عملها من موظفة بسيطة في بنك إلى نائبة رئيس بنك هاواي كانت جلية في عملها في بوينج. تذكر تشارلز باين أنها أصبحت مشرفة، وسرعان ما بدأت تكسب مالًا أكثر من أبيهما. ادخرت مادلين المال، لكنها كانت تبذر بين الحين والآخر. وعلى غرار إحدى الشخصيات في أحد أفلام بيتي ديفيز، اشترت مادلين لنفسها معطفًا من الفرو.

أصبحت بيتي ديفيز — التي ساعدت فتيات البلدات الصغيرة مثل مادلين على قضاء وقت الفراغ في مشاهدة أفلامها إبان أزمة الكساد — أحد أهم نجوم السينما في البلاد. حقق فيلمها «المسافرة» نجاحًا كبيرًا على مستوى البلاد في نوفمبر عام ١٩٤٢، فقد عرض أمام جمهور أغلبه من النساء. مثل ذلك الفيلم نقطة تحول في صورة بيتي ديفيز. فبينما شنت الحكومة حملات لاجتذاب ربات المنازل إلى العمل بالمصانع،

تخلت ديفيز عما وصفه مارتن شينجلر، وهو خبير سينمائي، بالمظهر الخنثوي السابق وظهرت «كالمتحدث الرسمي باسم الأنوثة ومساحيق التجميل والإغراء». بدأ ذلك التحول قبل ستة أشهر من ذلك، كما أشار شينجلر، مع عرض فيلم «في هذا حياتنا» في مايو عام ١٩٤٢، الذي لعبت فيه ديفيز دور ستانلي تيمبرليك، وهي حسناء من الجنوب.

في ربيع ذلك العام، كانت مادلين دونام حاملًا وهي في التاسعة عشرة من عمرها. وفي التاسع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٤٢، أي بعد شهر من عيد ميلادها العشرين، وضعت مادلين طفلتها ذات العينين البنيتين والشعر البني، وورثت لون البشرة الرقيق الذي اشتهرت به خالة أبيها دوريس، التي توجت ملكة جمال إلدورادو. ذكر أوباما في كتاب «أحلام من أبي» أن أمه ولدت في فورت ليفينورث، القاعدة العسكرية الموجود بها ستانلي. لكن رالف دونام قال إنه زار مادلين وطفلتها في مستشفى ويتشيتا وكان عمر ستانلي آن يومًا أو يومين. بعد عدة سنوات، كانت آن تقول إنها كادت تخرج إلى العالم في سيارة أجرة مسرعة؛ إذ قالت لمايا إن أمها مادلين أثناء استقلالها سيارة أجرة وسط العاصفة الثلجية في اتجاهها إلى المستشفى كادت تضع طفلتها في السيارة. وعندما أخبرت آن ابنتها مايا بتلك القصة، أخبرتها بأنها هي نفسها مرت بأمر مماثل عندما وضعت مايا بعدها بثمانية وعشرين عامًا. عند ولادة مايا، وصلت مادلين إلى جاكرتا بالطائرة، وذهب والد مايا، لولو سوتورو، إلى المطار لاستقبالها. كانت عشية عيد الاستقلال في إندونيسيا، وكانت آن في انتظار أمها وزوجها في مستشفى كاثوليكي في جاكرتا وهي على وشك الولادة، لكنها خرجت بعد أن نفد صبرها إلى الشارع للبحث عنهما. وبينما كانت على وشك ركوب دراجة أجرة، تدعى البيكاك، ظهرت السيارة التي تقل مادلين ولولو أخيرًا، على حد وصف آن. كادت مايا، التي ورثت عن أمها حب السفر، أن تولد في دراجة أجرة. أما آن، التي ورثت عن والديها الكانساسيين دافع المغامرة، فكادت تولد في سيارة أجرة، لكنهما ولدتا في مستشفى في النهاية.

أطلقت مادلين وستانلي على ابنتهما اسم ستانلي آن.

في الأعوام التالية، كان التفسير الذي يقدم عن سبب اختيار هذا الاسم في الأغلب هو أن أباها كان يتمنى أن تنجب زوجته صبيًّا. كتب أوباما: «من بين أفكار جدي الأقل حصافة، أنه تمنى إنجاب صبي.» لكن أقاربهم أبدوا شكوكهم في صحة تلك القصة. قال رالف دونام إن شقيقه «كان سيرضى بأي طفل صحيح البدن

على الأرجح». لعله أعجبه الاسم فحسب. أو لعل هذه القصة بدأت كمزحة اختلقها ستانلي المؤلف الشهير نفسه على سبيل المزاح. حقيقة الأمر أن مادلين كانت مسئولة تمامًا عن أمور مثل تسمية طفلتها وتربيتها، كما أخبرني بعض أشقائها، وما كان لستانلي أن يعترض. قالت لي مايا: «عندما سألت جدتي عن سبب اختيار هذا الاسم، قالت لي: «لا أدري لماذا أطلقت عليها هذا الاسم.» لأن جدتي هي من أطلقت عليها اسم ستانلي، لكنها لم تقل لي سوى: «لا أدري» عندما سألتها.»

أشارت مادلين، في مناسبة واحدة على الأقل، إلى أنها أطلقت على ابنتها هذا الاسم تيمنًا باسم الحسناء الجنوبية التي ظهرت في الفيلم الذي مثل نقطة تحول في صورة بيتي ديفيز على الشاشة قبل ستة أشهر من مولد ستانلي آن. فعندما سُئلت مادلين عن سبب اختيار هذا الاسم بعد مولد ستانلي آن بفترة قصيرة، قالت على نحو غامض: «لقد لعبت بيتي ديفيز دور فتاة تدعى ستانلي.»

هوامش

(1) Courtesy Margaret McCurry Wolf.

الفصل الثاني

سنوات النضج في سياتل

لم يكن من السهل على فتاة تدعى ستانلي أن تنشأ في كنف أب لا يهدأ. وبحلول عيد ميلادها الرابع عشر، كانت ستانلي آن قد تنقلت أكثر من العديد من الأمريكيين في هذه الأيام على مدى حياتهم. فعندما بلغت عامين من عمرها، انتقلت من كانساس إلى كاليفورنيا، حيث أمضى ستانلي دونام عامين طالبًا في جامعة كاليفورنيا ببيركلي، ثم عادت من كاليفورنيا إلى كانساس، حيث حضر أبوها، بعد أن ترك الدراسة في جامعة كاليفورنيا، عدة دورات تدريبية في جامعة ويتشيتا، بعد ذلك انتقلت من كانساس إلى مدينة بونكا بولاية أوكلاهوما، حيث عمل أبوها موظف مبيعات في مجال الأثاث. وبعدها انتقلت من بونكا إلى تكساس، لعمل أبيها في مجال بيع الأثاث مرة أخرى، ثم عادت من تكساس إلى إلدورادو، ومن إلدورادو إلى سياتل، ومن سياتل إلى ميرسر آيلاند بواشنطن، حيث استقرت عائلتها أربع سنوات قبل أن تتجه غربًا مرة أخرى، وهذه المرة إلى هاواي، حيث استقر ستانلي ومادلين في النهاية. عندما التحقت ستانلي آن بمدرسة ميرسر آيلاند الثانوية وهي طالبة في السنة الأولى في الثالثة عشرة من عمرها في خريف عام ١٩٥٦، كانت قد اعتادت على كونها الشخص الغريب والدخيل دائمًا. اتسمت ببعض صفات الأطفال الذين يولدون لآباء كثيري التنقل؛ فقد كانت سريعة التأقلم وذات شخصية مستقلة. أجادت فن التعريف بنفسها، وطورت إجابة استباقية للسؤال الحتمي؛ إذ كانت تقول: «اسمي ستانلي. أراد أبي صبيًّا، لكنه رزق بفتاة.» هذا الرد الحاسم، سواء أكان صحيحًا أم لا، يكشف عن شيء في شخصية قائله. عندما بلغت مرحلة المراهقة، كانت ستانلي آن فتاة سريعة البديهة ومستقلة الشخصية وتتمتع بروح الدعابة الساخرة. فضلًا عن بعض الصفات الأخرى التي تميز الغرباء، فقد كانت تشعر بالفضول تجاه الآخرين، وكانت متسامحة، ولا تتسرع في إطلاق الأحكام.



شكل ٢-١: مادلين وستانلي آن ورالف دونام. متنزه يلوستون الوطني، صيف ١٩٤٧.

كذا تمتعت بقدرة استثنائية، حتى وهي طفلة صغيرة، على السخرية من نفسها، كما أخبرني تشارلز باين. واتسمت علاقتها بوالدها بكثرة الشجار؛ فقد عرفت من وقت مبكر كيف تثير حنقه.

كانت تشبه والدها من الناحية الجسمانية؛ إذ ورثت عنه ذقنه الطويل، وفمه الصغير، وشعره الذي يثير الحسد. في طفولتها، لم تكن رشيقة القوام إلى حد ما، وأصيبت بالربو في منزل يدخن كل من فيه. وفي مرحلة المراهقة، مقتت إهانات صالة التمارين الرياضية بالمدرسة ونظامها الصارم. كانت تفتقد صفات الرياضيين، لكنها كانت ذكية. عندما كان رالف دونام طالبًا في كلية علم النفس التربوي بجامعة كاليفورنيا ببيركلي، وكان يعيش في سكن للطلاب في ريتشموند، بكاليفورنيا، مع شقيقه ومادلين وستانلي آن، أعطى ابنة أخيه البالغة من العمر حينئذ أربع سنوات اختبارًا للذكاء. قال لي: «ليس من المفترض إعطاء ذويك اختبارات للذكاء، لكنني أعتقد أنني كنت محايدًا تمامًا.» وعندما سألته كيف أبلت في ذلك الاختبار، قال بكبرياء وإعجاب واضحين: «أبلت بلاءً حسنًا للغاية بالطبع.»

اتسمت ستانلي آن بالفضول وكانت مفعمة بالحيوية، وأخذت من أمها عنادها. قال تشارلز باين: «إذا قررت أن تفعل شيئًا، كانت تفعله سواء أكان بمشيئة أي شخص أم بغير مشيئته.» إلى أن وصلت إلى ميرسر آيلاند، لم تمكث ستانلي آن في أي مكان فترة كافية تسمح لها بتكوين صداقات. وفي وقت حملت فيه الفتيات الصغار أسماءً مثل ماري وبيتي وباربرا، تعرضت ستانلي آن للسخرية من اسمها. (تمنت أن يكون اسمها ديبورا، كما أخبرت مايا بعد سنوات عديدة). كانت تحب الوحدة وكانت مولعة بالقراءة، وتميل إلى الانزواء بعيدًا لساعات وتنخرط في قراءة الإصدارات القديمة لمجلة ناشيونال جيوجرافيك. وعلى حد تعبير مايا: «دائمًا ما كانت تسافر في خيالها.» تمتعت بالاستقلالية في آرائها، لكن ليس بالدرجة التي تجنبها اضطرابات مرحلة المراهقة وتعطشها إلى الانسجام مع المجتمع. في مرحلة المراهقة، كانت تقلق حيال مظهرها، وفي العام الذي وضعت فيه تقويم الأسنان، نادرًا ما ابتسمت، كما أخبرني أحد أصدقائها. كانت تنتقد السخافات ولم تكن تتحمل الزيف والفصاحة الفارغة. كان حس الدعابة سمة أساسية في شخصيتها، أحيانًا ما يكون لاذعًا، لكن ليس خبيثًا. وكثيرًا ما كانت تعلو وجهها نظرة لهو ساخرة. في الصفحات الأخيرة من الكتاب السنوي لمدرسة ميرسر آيلاند الثانوية لعام ١٩٦٠، هناك صورة فوتوغرافية لستانلي آن وزميلتها بالمدرسة، مارلين ماكميكن، وكانتا بمتجر بيترامز تن سنت في صورة إعلانية ظهرت في الكتاب المدرسي السنوي. تظهر مارلين في الصورة وقد اتخذت وضعية مناسبة، متمركزة أمام الكاميرا، وكانت تقف بجوار صندوق الدفع والحامل المعدني للبان ريجلي. كانت تبتسم في حماسة وتحادث أمين الصندوق غير الظاهر بالصورة. وفي خلفية الصورة، بعيدًا عن محور التركيز قليلًا، تظهر ستانلي آن، وهي تشيح بعينيها إلى أعلى بشكل واضح. كانت تكثر الإشاحة بعينيها، كما أخبرني صديقها بالمدرسة الثانوية، جون هانت.

رأى أصدقاء ستانلي آن والدها رجلًا ثرثارًا ودودًا ومشاكسًا. أحيانًا ما يكون جذابًا ومزعجًا، وغالبًا ما كانت دعاباته تنطوي على مضايقات. بالمقارنة بغيرهما من الآباء بميرسر آيلاند، بدا ستانلي ومادلين — على الأقل من وجهة نظر البعض — أكثر جرأة ومسايرة للموضة. كانا حادَّيِ الذكاء وغير تقليديين، وإن لم يستكملا تعليمهما الجامعي، وكانا ينتميان إلى الطبقة المتوسطة العادية أكثر من الشريحة العليا للطبقة المتوسطة. كانت مادلين العقل المدبر في العائلة، وفقًا لأغلب

الروايات، وعائل الأسرة الذي يمكن الاعتماد عليه. لكن ستانلي مارس بعض سلطاته في المنزل على أقل تقدير. اعتاد ستانلي توصيل ستانلي آن وأصدقائها من وإلى مباريات كرة السلة وكرة القدم الأمريكية بالمدرسة الثانوية في سيارته المكشوفة البيضاء. وبين الحين والآخر، كان يسمح لبعضهم بتولي عجلة القيادة والجلوس على ساقه. استمتع أصدقاء ستانلي باهتمامه بهم، واستمتع هو باهتمامهم به. أخبرتني سوزان بوتكين بليك، إحدى زميلات ستانلي آن بالمدرسة وصديقتُها: «في النهاية، كان لا يكف عن الثرثرة نوعًا ما، كان من بين الأشخاص الذين إذا أعرتهم أذنًا مُصغية، يستغلون الفرصة.» كان يتسبب في إحراج ابنته، لا سيما لقلة لياقته مع أصدقائها. ذكر لي رالف دونام أن ستانلي كان صارمًا ومفرطًا في الخوف على ابنته. ومن وراء ظهره، كانت تشير إليه بسخرية إلى حد ما باسم «ستان الكبير» مع أصدقائها الذين كانوا يدعونها ستان. تذكرت كاثي سوليفان، إحدى الصديقات المقربات لستانلي آن في الثانوية، أن ستانلي آن كانت تنظر إلى جانبها في سيارة ستانلي دونام، بعيدًا عن مجال رؤيته، وتعبس بوجهها لإضحاك الآخرين. كان لكاثي هي الأخرى نصيب من الإحراج الذي يتسبب فيه الوالدان لأبنائهما. كانت أمها، التي نشأت في مجتمع زراعي في إلينوي، لا تزال تعلق الملابس على أحبال الغسيل، ولم تبد — من وجهة نظر ابنتها المراهقة — أنها تعرف الطريقة الملائمة للحديث. شعرت كاثي أن أمها لم تنسجم مع مجتمع ميرسر آيلاند، وكذلك أيضًا والد ستانلي آن. كانت كاثي وستانلي آن تحكي إحداهما للأخرى تلك الإهانات مما يخفف عن كاثي. قالت لي كاثي: «كانت ستانلي تكره أباها وقت معرفتي بها، كانت تكرهه بقدر ما تكره الفتاة المراهقة أباها عادة.»

شكل كل من الزمن وجغرافيا المكان تجربة نضوج ستانلي آن في ميرسر آيلاند في النصف الثاني من الخمسينيات. عندما وصل آل دونام إلى ميرسر آيلاند عام ١٩٥٦، كانت ميرسر آيلاند مكانًا ريفيًّا إلى حد بعيد، ٦٫٢ أميال مربعة من الأراضي المشجرة، على شكل شريحة من اللحم، تقع شرق سياتل ببحيرة واشنطن. كان عدد سكانها ثمانية آلاف تقريبًا، أغلبهم متناثرون على امتداد حدود الجزيرة في منازل جميلة مطلة على البحيرة وعدد أكبر من البيوت الصغيرة المتواضعة ذات الأطر الخشبية. كان جميع سكان المدينة تقريبًا من البيض. تذكر زملاء ستانلي آن بالمدرسة وجود طالب واحد أسود في المدرسة الثانوية بأسرها حتى السنة النهائية لهم. امتلأت صفحات الجريدة المحلية — ميرسر آيلاند ريبورتر — بأخبار

موائد طعام مجلس الآباء والمعلمين، وصفوف الرقص الثنائي، وحفلات عشاء «الأب والابنة» التي تنظمها منظمة كامب فاير للفتيات. ذكرت الإعلانات في قسم الشئون الشخصية أشياء مثل: «سيدة محترمة مهتمة بإنشاء نادي للعب الورق.» تناولت المقالات الافتتاحية بجدية موضوعات مثل: «أخلاقنا المتلاشية». عندما اصطحبت معلمة اللغة الفرنسية بالمدرسة الثانوية، مدام وايت، مجموعة من الطلاب إلى أوروبا في فصل الصيف، ركبت الفتيات الطائرة وهن يرتدين قبعات وأحذية بكعب عال وقفازات بيضاء. لم يكن هناك وجود للجريمة تقريبًا. كان بمقدور الأطفال قضاء الليل في حقائب النوم بجانب البحيرة أو الاختفاء في الغابة اليوم بأكمله. قالت سوزان بوتكين إن أسرتها لم تملك مفتاحًا للمنزل. وعندما تسافر أسرتها لقضاء العطلة، كانت أمها تغلق مزلاج الباب الأمامي وقفل الباب الخلفي مع خروجها، وتترك شباكًا بالطابق العلوي مفتوحًا جزئيًّا حتى يدخل منه شقيقها عند عودتهم. كانت المعديات وسيلة المواصلات المباشرة إلى سياتل حتى عام ١٩٤٠، عندما افتتح «الجسر العائم» بين سياتل والمدينة. كانت الطرق في الجزيرة مغطاة بالقار والحصى. وكان يوجد بميرسر آيلاند مركز تجاري صغير وبضعة متاجر ومواصلات عامة قليلة، ولا يوجد بها دور سينما، والقليل من أجهزة التليفزيون. قال جيم سوليفان، الذي كان يقود سيارته المكشوفة موديل ألفا روميو من جامعة واشنطن عبر الجسر العائم ليحضر صديقته كاثي باول، صديقة ستانلي آن: «أذكر الذهاب بصحبة بعض أصدقائي بالكلية إلى ميرسر آيلاند. كان يتملكني شعور بأنها بلد مختلف، فثمة الكثير من الضوابط الدقيقة التي فرضتها جغرافيا المكان.»

بيد أن التغيير كان قادمًا؛ إذ كانت حركة تضخم الضواحي الكبيرة في أعقاب الحرب العالمية الثانية جارية على أشدها في أمريكا، والمجتمعات الموجودة شرق سياتل القريبة من سلسلة جبال كاسكيد آخذة في النمو. وكانت شركة بوينج، بموقع تصنيع الطائرات الخاص بها في مدينة رينتون بواشنطن، تنشئ قسمًا لخطوط الطيران التجارية لعصر الطائرات النفاثة. كانت مقاطعة كينج آخذة في الازدهار. وفي ميرسر آيلاند، تردد صوت هدير الجرارات وشاحنات خلط الأسمنت، على طريق آيلاند كريست واي، وهو الطريق الذي يمر عبر الجزء الرئيسي بالجزيرة كالسَّحاب. افتُتح أول مجمع سكني ضخم عام ١٩٤٩، ثم تلا ذلك تقسيم الأراضي إلى قطع لبيعها. انتقل الفنيون الشباب إلى الجزيرة، بحثًا عن سكن بسعر معتدل، ومدارس جيدة، ووسيلة انتقال سهلة إلى سياتل. كان الكثير منهم خريجي كليات،

ناجحين وأثرياء، ومتعهدين بخلق فرص لأبنائهم. جاء في عنوان رئيسي بمقالة نشرت بصحيفة ميرسر آيلاند ريبورتر: «يرحب نادي الوافدين بثمانية مقيمين جدد بالمدينة.» وكانت الجريدة ترحب بالنساء الوافدات إلى المدينة بأسماء أزواجهن: «السيدة ريتشارد فريدينرش والسيدة بول هيندمان» وهكذا. كان والد كاثي باول، الذي انتقل هو وأسرته إلى ميرسر آيلاند في العام الذي وصل فيه آل دونام، مهندسًا بشركة لوكهيد، ثم عمل مديرًا لشركة تأمين، أما والدتها فقد تلقت تدريبًا للعمل ممرضة. أما تشيب وول، الذي وصل قبلهم بعامين، فهو ابن لقائد عسكري لكتيبة صواريخ نايك كانت تنشئ نظام دفاع صاروخي حول سياتل، وأمه ارتادت كلية لتعلم الاختزال. أما أم سوزان بوتكين، فقد أرسلتها منظمة الكشافة النسائية غربًا من ميزوري، كما أخبرتني سوزان، لإجراء أبحاث حول سبل تطوير حركة الكشافة في تلك المنطقة. وبعيدًا عن ميرسر آيلاند، كانت حركة الحقوق المدنية قد بدأت، وحبوب منع الحمل في طريقها للظهور، وسيعلن جون إف كينيدي في الثاني من يناير عام ١٩٦٠ أنه سيترشح للرئاسة. يقول بيل بايرز، أحد زملاء ستانلي آن في المدرسة: «كان التغيير يلوح في الأفق، شعرنا بذلك ونحن في المدرسة الثانوية. لم نعِ ما كنا نشعر به. كان ذلك في نهاية حكم أيزنهاور، وكافة الأمور مستقرة للغاية. كل ما في الأمر أن الوضع كان هادئًا أكثر مما ينبغي، ولا يستطيع الشباب تحمل الوضع حينما يكون هادئًا أكثر مما ينبغي.»

امتلأت مدرسة ميرسر آيلاند الثانوية بالطاقة والطموح اللذين يميزان أي مدرسة جديدة. حتى منتصف الخمسينيات، لم توجد مدرسة ثانوية بجزيرة ميرسر آيلاند، وسافر الطلاب إلى بلفيو أو سياتل يوميًّا. كانت دفعة عام ١٩٥٨ أول دفعة تتخرج في المدرسة الجديدة، التي بنيت بين أشجار تنوب دوجلاس بجوار الحي السكني الجديد — ميرسروود — على مقربة من مركز الجزيرة. كان أغلب أفراد هيئة التدريس بالمدرسة من الشباب المجدين. قال جيم ويشترمان، الذي وصل إلى الجزيرة في منتصف الخمسينيات للعمل كمعلم دراسات اجتماعية بدوام جزئي ومدرب كرة قدم وألعاب قوى: «كان كل شيء جديدًا، أراد الجميع الاجتهاد في العمل، وأراد جميع الآباء أن تكون المدرسة جيدة، فقد كان هدفنا أن نؤسس نظامًا تعليميًّا جيدًا.» أخبرتني ماكسين هانسن بوك، وهي صديقة مقربة لستانلي آن وأصبحت معلمة بالمدارس الابتدائية في بلفيو ورينتون لسبعة وعشرين عامًا، أن المناهج الدراسية بمدرسة ميرسر آيلاند الثانوية وضعت بهدف أن تمثل

تحديًا أمام الطلاب. في ذلك الوقت، بدأت المناطق التعليمية الفردية في جمع المال من دافعي الضرائب المحليين لرفع رواتب المعلمين وبناء المرافق، وشارك دافعو الضرائب في ميرسر آيلاند بحماسة في ذلك الأمر. ذهب الآباء بأعداد كبيرة في جولات التعرف على المدرسة ونظامها قبل بدء العام الدراسي، ونظموا حفلات التخرج، وعلموا أي طلبة التحقوا بهارفارد. جاءت في الصحف مقالات عن آخر المتأهلين للمنافسات النهائية في مسابقة منحة الاستحقاق الوطني الدراسية. انتقل والدا ماكسين — اللذان لم يكملا تعليمهما نتيجة للكساد الكبير — إلى ميرسر آيلاند عام ١٩٥٧ لأسباب منها وجود مدارس جيدة بها. شأنهما شأن الآباء الآخرين بميرسر آيلاند، جعلا توقعاتهما واضحة أمام أطفالهما. قالت لي ماكسين بوكس: «أرادا منا أن نبذل أقصى ما بوسعنا وأن نقبل التحدي ونفعل اللازم كي ننجح. لا شك أن المدرسة التي يلتحق بها الطفل تصنع فارقًا كبيرًا؛ فهي توسع آفاق الأطفال حيال ما يمكنهم تحقيقه. لم تكن هناك حدود لأحلامنا.»

انتقل آل دونام إلى مجمع شوروود السكني قبل بدء العمل بالمدرسة عام ١٩٥٦. وكان أول مجمع سكني ضخم للإيجار بميرسر آيلاند، وافتتح قبل انتقالهم بسبع سنوات، وصمم خصيصى لأسر الطبقة المتوسطة. كانت البنايات السكنية مكونة من طابقين أو ثلاثة طوابق من القرميد، ولها أطر خشبية، ومحاطة بحدائق واسعة تنحدر نحو شاطئ متعرج خاص. كذلك كانت الشقق بأرضيات خشبية صلبة، وكورنيش للسقف، وتطل على سلسلة جبال كاسكيد، والأبواب الأمامية تطل مباشرة على الحدائق. ضم المجمع السكني ملاعب للتنس، ومركزًا مجتمعيًّا، ومتجرًا متنوعًا. وفي غضون عامين من افتتاح مجمع شوروود السكني، تضاعف تسجيل الطلاب في مدرسة ميرسر آيلاند أربع مرات تقريبًا. مكث الوافدون إلى الجزيرة، الذين انتظروا الانتهاء من بناء منازلهم، في شوروود. وكذلك فعل الأزواج المنفصلون في محاولة للتخلص من تداعيات زيجات محطمة. عاشت معظم الأسر في ميرسر آيلاند في منازل تتسع لأسرة واحدة فقط، تنوعت من بيوت من طابق واحد ومنازل بوحدتين سكنيتين منفصلتين، إلى منازل مطلة على بحيرة واشنطن يوجد بالأرضية أسفل طاولة تناول الطعام بها زر لاستدعاء الخادمة. تمتعت شوروود بعوامل جذب خاصة، منها وجود عدد كبير من الأطفال بها. من شقة آل دونام ذات حجرتي النوم بإيست ليكسنجتن واي، كانت المسافة قصيرة إلى الجادة ٩٠ الجنوب شرقية وعبر شارع ٤٠ الجنوب شرقي إلى مدرسة ميرسر آيلاند الثانوية سيرًا على الأقدام. عاش

تشيب وول، أحد أصدقاء ستانلي آن، في شوروود. وعاش ستيف ماكورد، صديق آخر لستانلي آن، في منزل بين الأشجار بالقرب من جسر المشاة الذي يصل بين شوروود العليا والسفلى. وعاشت ماكسين هانسن في ميرسروود، وكانت تبعد عن المدرسة ثلاثة مربعات سكنية. لم تعمل أم ماكسين، شأنها شأن معظم الأمهات في ميرسر آيلاند، لذا كثيرًا ما كانت تعود ستانلي آن مع ماكسين إلى منزلها بعد المدرسة. كتبت ستانلي آن خلف صورة جماعية للطلبة وهي في السنة العاشرة أعطتها لماكسين: «لن أنسى كيك الشيكولاتة الذي تصنعه أمك، مع حبي + حظًّا سعيدًا، ستانلي.»

التقت ستانلي آن وماكسين في اليوم الأول لماكسين بالمدرسة، في سبتمبر عام ١٩٥٧، في اجتماع الترحيب بالطلاب الجدد في الصالة الرياضية بالمدرسة. في التقسيم المجتمعي بمدرسة ميرسر آيلاند، حاز الفتيان اللاعبون رياضيًّا الشعبية. اهتموا بملبسهم وامتلكوا قوارب للتزلج وآثروا الصمت داخل الفصل. أما الفتيات المحبوبات، فتمتعن بالجمال والقوام الممشوق، وارتدين جونلات صوفية بطيات وبلوزات من قطعتين. لم يكن الذكاء شرطًا ضروريًّا للتمتع بالشعبية. كان يوجد مجموعة من الطلاب الأذكياء غريبو الأطوار — يصفون أنفسهم بأنهم مفكرون وذلك على نحو مناقض للثقافة السائدة بالمدرسة الثانوية — يقرءون الكتب خارج المقرر الدراسي ويعتقدون أن أغلب الطلبة الرياضيين أغبياء. كان من بين هؤلاء، بيل بايرز، الذي اعتبره أصدقاؤه الأوفر حظًّا لتحقيق النجاح. ومن بينهم أيضًا، تشيب وول، الذي اعتبره أصدقاؤه الأكثر نبوغًا. لم يكن من السهل تصنيف أصدقاء ستانلي آن، لكنهم كانوا أفرادًا غرباء أكثر من كونهم أفرادًا منسجمين مع المجتمع، وقد اعتادوا مناداتها بستانلي. في ذلك اليوم من عام ١٩٥٧، كانت ستانلي تجلس مع مجموعة من الفتيات (سبعة منهن واظبن على تناول العشاء معًا بصفة شهرية طوال خمسين عامًا تقريبًا) دعت مجموعة الفتيات ماكسين للانضمام إليهن، وهو تصرف له علاقة بأن لماكسين شقيقًا أكبر منها يدعى بيل يبلغ طوله ستة أقدام وتسع بوصات وله مستقبل لامع في كرة السلة، حسبما أخبرتني ماكسين. تقول ماكسين متذكرة: «سبقتني ستانلي إلى تلك المدرسة بعام واحد، لذا تفهمت شعور الطالب المستجد. أعتقد أن ذلك كان أحد أسباب تعارف كل منا على الآخر بسرعة كبيرة. أذكر ستانلي وهي تضحك عندما عرفتني بنفسها وقالت إن اسمها ستانلي. ثم قالت على الفور: «أراد أبي صبيًّا».»

سألتها: «كيف كانت ضحكتها؟»

قالت: «مثلما تسخرين من نفسك عندما لا تشعرين بالخجل من أي شيء.»

كانت دعابات ستانلي آن سريعة ولاذعة وتهكمية. كانت ستانلي آن — التي صارت عالمة أنثروبولوجيا في المستقبل — جزءًا من ثقافة المدرسة الثانوية والعادات الغريبة لطلابها وفي الوقت ذاته كانت منفصلة عنها. أخبرني تشيب وول أن حس دعابتها ظهر في روح أفلام بيتر سيلرز وبرنامج «جون شو» الكوميدي. كانت ترى الجانب المضحك في الأشياء الذي لا يراه الآخرون ببساطة. كانت تهكمية لاذعة اللسان، وكانت تزدري بصورة خاصة زملاءها ممن يرددون آراء آبائهم. وصفتها أيونا ستينهاوس، إحدى زميلاتها بالصف، بأنها «دائمًا كانت تتشكك في الأمور من حولها». وكانت تتسم بالصراحة. قال جون هانت: «كانت تتحدانا أن ننفذ ما نهدد به وتفضح تظاهرنا الفكري. هكذا كانت؛ فظة.» كانت تصغر زملاءها بالصف سنًّا، إلا أنها كانت أنضج منهم على المستوى الفكري أكثر من الاجتماعي، وواثقة من ذكائها أكثر من ثقتها بمظهرها. تمتعت بما سماه ستيف ماكورد بأخلاقيات ملكية إلى حد ما: كانت هادئة ورابطة الجأش، كانت ترفع ذقنها قليلًا عن أغلب الناس. ارتدت جونلات بطيات أو فضفاضة، والبلوزات الشائعة في تلك الفترة، لكنها قاومت الدافع إلى الارتقاء بزيها وارتداء ماركات ملابس راقية. قالت كاثي باول، التي اعتادت تبديد راتبها من وظيفتها التي عملت بها في العطلات الأسبوعية في مطعم بانكيك كورال بلفيو على شراء جونلات ماركة إيفان بيكون: «كانت غالبًا ما تسخر مني وتقول: «ستون دولارًا نظير جونلة؟»» قال لي ستيف ماكورد: «لم تكن فتاة جميلة سطحية تمضغ العلك وتغازل الفتية، بل كانت فتاة من ميرسر آيلاند ترتدي سترة من الكشمير تفتقد إلى الذكاء الاجتماعي.» كانت ستانلي آن في رأيه فتاة واقعية لا تتسرع في الحكم على الناس. وكانت واحدة من بين أصدقائه القلائل الذين أسر إليهم دونما خوف بإدراكه المتزايد بأنه شاذ جنسيًّا، وهو الأمر الذي رأى أبواه المتدينان والمتفانيان أنه يمكن علاجه. كان ماكورد يكبر ستانلي آن بعام وتعرف عليها في نادي اللغة الفرنسية. في صحبة الأفراد الذين لم تكن على معرفة جيدة بهم، كانت ستانلي آن متحفظة وتمقت جذب انتباه الآخرين إليها. أما بين أصدقائها، فكانت مفعمة بالنشاط وأكثر انفتاحًا. لم تسعَ إلى تسليط الأضواء عليها داخل الفصل، لكن عندما تتأثر بما يذكر من أفكار، كانت تعبر عن آرائها بصراحة. امتازت بقدر من الجدية جعل جيم ويشترمان، معلم الدراسات الاجتماعية، يتذكرها مع مرور نصف قرن. بدت مهتمة بتلك المادة

وبأفكارها. لم تكن متمردة بصورة علنية ولم تنزع إلى الانضمام إلى المنظمات والنوادي الاجتماعية، فقد وجدت مكانها في النهاية وسط دائرة ذكورية أغلبها من الثائرين على العرف السائد والناجحين على المستوى الأكاديمي بعيدًا عن نفوذ الطلاب اللامعين رياضيًّا. أخبرتني سوزان بوتكين بليك: «لطالما وُجد ذلك التوتر الدائم بحياتها، الذي نبع من شعورها بضرورة الانسجام مع المجتمع والعزلة في نفس الوقت.»

انتشر بين زملائها حفلات المبيت ورقصات سوك هوب ورحلات التزلج والقليل من احتساء الخمر وانعدمت بينهم المخدرات وكان هناك القليل من المواعيد الغرامية وقدر أقل من العلاقات الجنسية. إذا كانت أي صورة من صور التربية الجنسية بالمدرسة، فلم يبد أن أحدًا ممن تحدثت إليهم يذكر شيئًا عنها. أخبرتني ماكسين بوكس أن الطالبات اللاتي ارتدن المدرسة الإعدادية بميرسر آيلاند قال لهن أحد المعلمين: «إذا جلست على ساق أحد الصبيان، فاحرصي على وضع صحيفة.» كما قيل لهن إن التقبيل والمداعبة قد يؤديان إلى أشياء أخرى، دون الإفصاح عن تلك الأشياء الأخرى. قيل لهن أيضًا إن التحدث مع الغرباء محفوف بالمخاطر، لكن دون ذكر تلك المخاطر. كان من الصعب التحدث مع الأم عن العلاقة الجنسية، والعديد من الفتيات لم يزرن طبيب أمراض النساء حتى بلغن ثمانية عشر عامًا أو أكثر، أو بعد أن تزوجن. كان ذلك قبل عام أو اثنين من تصديق الإدارة الأمريكية للأغذية والأدوية على حبوب منع الحمل، وقبل سنوات كثيرة من إتاحتها على نطاق واسع في أماكن مثل حرم الكليات. كانت الوسيلة الوحيدة لتحديد النسل التي بدا أن المراهقين يعرفونها هي الواقي الذكري. اشترى أحد الأشقاء الذين امتلكوا محطة تزويد بالوقود كان يعمل بها بيل بايرز بعد المدرسة مجموعة منها لصغار العاملين لديه، وكان يخرج من الصيدلية ومعه شريط من الواقيات وقد وضعه على كتفه وكأنه حزام ذخيرة، بهدف إثارة دهشة الآخرين. واجهت فتيات ميرسر آيلاند مصيرًا مشئومًا إذا لم يحالفهن الحظ وحملن قبل التخرج: بعضهن يختفي فجأة؛ إذ يرحلن للعيش مع أحد أقاربهن أو لاستكمال دراستهن في مكان آخر حيث لا يعرفهن أحد، وأخريات أخفين حملهن، وبعضهن تزوجن في هدوء قبل التخرج. عندما حملت فتاة جميلة ومحبوبة من شاب في السنة النهائية بالمدرسة الثانوية، لاحظت ستانلي آن وكاثي باول اختفاءها المفاجئ. أخبرتني كاثي باول سوليفان أنهما شعرا بالصدمة لاضطرار الفتاة للرحيل ولأن عائلة الشاب دبرت ذلك الأمر.



شكل ٢-٢: ستانلي آن (إلى اليسار)، في الرابعة عشرة من عمرها، في حفل، صيف عام ١٩٥٧.[1]

أخبرتني جودي وير، التي كان والداها أصدقاء لمادلين وستانلي دونام من نادي البريدج، أنها حملت في السنة النهائية. يتطلب الإجهاض — وكان غير قانوني وغالبًا محفوفًا بالمخاطر — ترتيبات معينة عبر وسطاء. توانت جودي، التي كانت حريصة على إرضاء والديها، في إخبار والديها بأنها حامل. خطط والداها لتزويجها سرًّا — لم يوجها الدعوة إلى أقاربهما، والتقطا صورًا قليلة لحفل الزفاف — في منطقة بعيدة عن سياتل. وتخرجت وهي في شهرها الخامس من حملها.

قالت لي وير: «ترعرعنا في مجتمع يشبه مجتمع جون كليفر في مسلسل «اترك الأمر لبيفر»، لم نكن مهيئين جيدًا للتعامل مع تلك الأمور.»

بيد أن آل دونام لم يكونوا كآل جون كليفر. ربما لعب ستانلي دونام وزوجته البريدج مع آل هانسن وفارنر، لكنهما لم يكونا مثل أي أسرة أخرى بميرسر آيلاند. يذكر ستيف ماكورد أمسية قضاها بصحبة أفراد أسرة دونام في صيف عام ١٩٥٩. كان طالبًا نابغًا. لم يكن رياضيًّا ولم يشعر بالانسجام أبدًا في المجتمع. كان يفضل أن يعيش في مزرعة أو في مكان ما حيث يكون الناس، على حد تصوره: «أكثر حرية وأقل تحفظًا، وأقل اهتمامًا بمظهرهم.» اعتبر ستيف مادلين وستانلي شخصين مثيرين للاهتمام ومسليين ومتحرري الفكر. قال عنهما: «ربما تحللا من قيم المجتمع دون الإفصاح عن ذلك علانية.» في تلك الأمسية،

دخنوا الكثير من السجائر وتحدثوا كثيرًا. تذكر ماكورد ستانلي دونام وقال: «كان يتمتع بحس دعابة بغيض إلى حد ما أحببته فيه، وله أفكار فاحشة. لم تكن أسرة دونام نموذجًا للأسرة الأمريكية التقليدية في الخمسينيات بأي حال من الأحوال. أتذكر أن الحديث بيننا ازداد سخفًا عند نقطة ما. تحدثنا عن الكثير من الأشياء، وعندما ذكرت شيئًا عن القدرة على إمساك الأشياء بأصابع القدم، تلاعب ستانلي بالكلمات على نحو بذيء. كانت مزحة قبيحة وسخيفة. وعلى الفور، أعتقد أن مادلين تظاهرت بالامتعاض وهمست باستهجان: «ستانلي!» دار نقاش حول احتمال مغادرة آل دونام لميرسر آيلاند بعد أن تنهي ستانلي آن دراستها في المدرسة الثانوية. سألتهما: «ألا تعارض مادلين التخلي عن كل شيء هنا والبدء من جديد؟» ردت عليه مادلين بإجابة ستطرأ على ذهنه بعد سنوات باعتبارها إجابة تنم عن نفاذ البصيرة في ضوء ما حدث لابنة مادلين، قالت: «نحن في عائلة دونام نسعى وراء التميز عادة».»

انطبقت هذه الإجابة على مادلين بالتأكيد. عندما التحق ستانلي بجامعة كاليفورنيا ببيركلي، عملت مادلين بوظيفة في مكتب قبول الطلاب وكانت ستانلي آن حينها لا تزال طفلة تحبو. وعندما كانت في كانساس عملت مادلين في مكتب عقارات في ويتشيتا. تذكر ماك جيلكسون، الذي عرفها عندما كانت في أوجاستا، أنه قابلها مصادفة في مطعم كانت تعمل به نادلة. في مدينة بونكا، وعلى الرغم من أن ستانلي كان يكسب مالًا كافيًا يغني مادلين عن العمل، فقد أخبرت أحد أقاربها أنها ستعود إلى العمل. قالت: «لا أستطيع الكف عن احتساء الخمر ما دمت في المنزل، إذا لم أعُد للعمل فسأدمن الكحول.» أخبرني تشارلز باين أنها عملت في تصميم الأحذية، وكانت تذيع أخبار المجتمع على الراديو، وربما عملت أيضًا في إحدى الصحف، وحصلت على وظيفتها الأولى في مجال البنوك في تكساس. عندما انتقل آل دونام إلى سياتل، استغلت مادلين خبرتها في مجال البنوك في وظيفة بقسم السندات المعلقة للمدخرات والقروض. كانت أنيقة ونحيلة وجيدة المظهر، واستمتعت بعملها. وفي الوقت نفسه، راقبت الدرجات العلمية لستانلي آن عن كثب. بدت مهتمة بتمكين ابنتها من أن تحقق أكثر مما حققته هي وستانلي. ورثت مادلين عن أمها ذكاءها، كما أخبرني تشارلز باين. وصفها رالف دونام بالمرأة الذكية. لكن إذا كانت تفوق ستانلي ذكاءً، كما أخبرني البعض، فقد كانت حريصة على عدم تضخيم تلك الميزة من أجل الحفاظ على السلام الأسري.

انتقل ستانلي بأسرته غربًا في سبيل الحصول على وظيفة في مجال بيع الأثاث في متجر متعدد الأقسام يقع بوسط مدينة سياتل. لكن يبدو أن ستانلي كان موجودًا بالمنزل أكثر من مادلين. جاءت آراء أصدقاء ستانلي آن في ستانلي بأنه رجل وسيم ومرح، لكن ماكسين بوكس قالت في وصفه: «مثلما يمكن أن نصف بائع سيارات مستعملة. كان كثير الكلام، لكنه كلام بلا مغزى.» تمادى أحيانًا قليلة لإضحاك أصدقاء ستانلي آن. وكانت ستانلي آن تتلقى النصيب الأوفر من مضايقاته. وكان يحب إصدار الأوامر. تذكرت أيونا ستينهاوس ستانلي آن وهي تقول: «لا أستطيع فعل ذلك بسبب أبي.» و«علي أن أعود إلى المنزل خوفًا من أبي.» ومن سن صغيرة، كانت تفوقه ذكاءً؛ كانت تخدعه، فيستشيط غضبًا، فتتظاهر بالبراءة، فيضرب الأرض بقدميه غيظًا. قال لي أحد الأقارب: «إذا أرادت أن تفعل شيئًا ما، كان يرفض دون إبداء سبب، فكانت تتفوه بأشياء تعلم أنها ستثير حنقه. كانت قادرة على مضايقته بنظرة جادة ترتسم على وجهها بطريقة لا يعلم هو أن الهدف منها مضايقته، وكان يغضب حينئذ.» في المدرسة الثانوية، عندما أرادت الخروج برفقة مجموعة من أصدقائها، كانت تطلب من جون هانت أن يتظاهر بأنه رفيقها ويطلب منها الخروج معه دون الكثير من استجوابات أبيها. قال لي جون هانت: «لما كنت أتورط في حديث مع ستان، كانت ستانلي آن تشيح بعينيها لأعلى بإشارة تعني: «حذار!»» وأردف: «أراد «ستان الكبير» أن يعرف أسرار حياتها وأصدقاءها، لكن ستانلي آن لم تطلعه على شيء.» شأنها شأن الكثير من أصدقائها. قال تشيب وول: «أردنا الخروج من عباءات آبائنا.» كان رالف دونام عاشقًا لابنة أخيه على وجه الأخص، وقد عرفها جيدًا وهي طفلة صغيرة عندما عاش مع أسرة ستانلي في ريتشموند بكاليفورنيا. قال رالف إنه بعد عدة سنوات، أخبرته ستانلي آن أنه كان من المحتمل أن تكون الحياة أسهل عليها إذا كان هو أباها. قال رالف عن ستانلي: «كان يغالي في الخوف عليها.» حاول أن يتحكم في الأماكن التي تذهب إليها، والوقت الذي تمضيه هناك، ومن تقضي الوقت برفقتهم. وأضاف رالف: «كان ستانلي صارمًا للغاية معها، ولعل هذا السبب الذي دفعها إلى محاولة الخروج عن المألوف عندما كبرت.»

كانت حياة ستانلي ومادلين الزوجية مضطربة. ربما كان ستانلي متشبثًا برأيه وعنيدًا وحاد الطباع كما وصفه أوباما بعدها بسنوات. لم يرق له خسارة أي جدال، ولم يكن معتادًا على أن يخالفه أحد الرأي. كان من المألوف له ولمادلين

إفساد إجازة عائلية نتيجة لاندلاع شجار مطول بينهما يمتد ساعات في حضور أقارب لهما من خارج المدينة. أخبرني رالف دونام أن أخاه ترك الدراسة بجامعة كاليفورنيا ببيركلي لأنه لم يوف شرط اللغة. لكن أخبرني آخرون أن مادلين كانت تتذمر أن كتابة أبحاثه كانت تقع على عاتقها في نهاية المطاف، حين كان يتمدد ستانلي فوق الأريكة يقرأ القصص البوليسية. يقال إنها حالت بينه وبين استكمال دراسته بجامعة كاليفورنيا، وهو لم يسامحها على إصرارها على عودتهم إلى كانساس. تذمر أكثر من مرة محدثًا نفسه: «ماذا بوسعك أن تفعل إذا لم تُعِنْك زوجتك على استكمال دراستك؟» وفي صيف عام ١٩٥٧، عرج والدا مادلين وخالتها روث، وشقيقها الأصغر جون على آل دونام في زيارة قصيرة لسياتل خلال رحلتهم الصيفية السنوية في السيارة. كان جون، الذي يكبر ستانلي آن ببضعة أعوام، وكان أقرب إلى ابن الخال منه إلى الخال لها، قد ترك الدراسة بجامعة كانساس، وكان من المقرر أن ينضم إلى القوات الجوية في فبراير التالي. عثر على وظيفة بائع ملابس رجال بمتجر متعدد الأقسام في سياتل وأمضى أربعة أشهر ينام فيها على الأريكة بمنزل دونام. رأى أن زواج مادلين وستانلي في تلك الفترة بدا متقلقلًا. دارت شجارات بصوت عال، غالبًا بسبب المال. كانت ستانلي آن تفر من الشقة أحيانًا أو تمكث في غرفتها وتغلق الباب. قال لي جون باين: «أظن أنها ربما لم ترغب في سماع شجارهما.» قالت كاثي باول سوليفان إن ستانلي آن استنتجت في مرحلة مبكرة أن زواج والديها لم يكن نموذجًا تعتزم أن تقتدي به.

كانت ميرسر آيلاند مدينة محافظة على المستوى السياسي، لكن ليس بصورة متطرفة. في ربيع عام ١٩٥٥، أي قبل عام من انتقال ستانلي وأسرته إلى ميرسر آيلاند، استُدعي جون ستينهاوس، أحد أعضاء مجلس إدارة مدرسة ميرسر آيلاند ووالد أيونا ستينهاوس التي ستصير زميلة ستانلي آن بالمدرسة، للمثول أمام المحكمة للشهادة أمام لجنة فرعية تحقق في النشاط الشيوعي بمنطقة سياتل تابعة للجنة التحقيق الخاصة بالأنشطة المعادية لأمريكا. أخبرني جون ستينهاوس، الذي ولد في الصين وتلقى تعليمه في إنجلترا، أنه حضر بضعة اجتماعات نقاشية للحزب الشيوعي في لوس أنجلوس عام ١٩٤٣ وفي واشنطن العاصمة عام ١٩٤٦، لكن لم يكن بينه وبين الحزب أي اتصال منذ ذلك الحين. انتقل إلى ميرسر آيلاند عام ١٩٤٩، وانضم إلى مجلس إدارة المدرسة عام ١٩٥١. عمل في شركة تأمين في سياتل، وشارك هو وزوجته بفعالية في المساعدة في استصلاح الأراضي في ميرسر

آيلاند بغية تحويلها إلى متنزهات عامة وفي العمل على تأسيس جمعية تعاونية صحية. في ربيع ذلك العام، كانت مجالس إدارة المدارس في بريمرتون وتاكوما تفصل المعلمين الذين رفضوا الإدلاء بشهادتهم أمام اللجنة الفرعية متذرعين بالتعديل الخامس بالدستور الأمريكي، وأقرت الهيئة التشريعية بالولاية بتجريم الانضمام إلى الحزب الشيوعي. أما في قضية ستينهاوس، فكانت ميرسر آيلاند منقسمة على نفسها. تذكرت مارلين باور، إحدى صديقات أيونا المقربين، أن أباها كان دائمًا يردد، بأسلوب استفزازي شيئًا ما: «لن نستقبل الشيوعيين بمنزلنا، أليس كذلك؟» لكن أيونا ستينهاوس تذكرت أنها كانت تشعر أن المجتمع كان يؤويها ويحميها، فكان أصدقاء العائلة يصطحبونها إلى نادي الشاطئ عندما يكون الصحفيون أو المحامون بمنزل والديها على سبيل المثال. في شهر مارس، توافد مائتا شخص لحضور اجتماع مجلس إدارة المدرسة لتقرير مصير ستينهاوس. وبعد جلسة استماع استمرت ساعتين، ترك مجلس الإدارة القرار لستينهاوس، الذي قرر عدم الاستقالة. يرى جيم ويشترمان، الذي وصل إلى المدرسة الثانوية للتدريس فيها بعد ذلك الحدث بمدة قصيرة، أن طريقة تعامل ميرسر آيلاند مع قضية جون ستينهاوس عكست حسًّا جوهريًّا بالتوافق والتوازن، رأى ويشترمان أنه ساد ميرسر آيلاند في ذلك الوقت.

كانت الديانة التي تأثرت بها ستانلي آن في مراهقتها هي المسيحية الليبرالية. إلى جانب آل ستينهاوس، كان آل دونام من بين مجموعة من العائلات بميرسر آيلاند التي ارتادت كنيسة إيست شور التوحيدية في مدينة بلفيو، التي عرفت لبرهة خلال تلك الفترة بأنها: «الكنيسة الحمراء الصغيرة على التل». بدأت الكنيسة عملها في أواخر الأربعينيات في مبنى روضة أطفال عتيق بميرسر آيلاند ثم في كنيسة تأبينية صغيرة في مدينة بلفيو على يد عدة عائلات، من بينها آل فارنر، أصدقاء ستانلي ومادلين في لعبة البريدج. كانت الأسر المؤسسة للكنيسة، التي سئمت السفر إلى الكنيسة التوحيدية في سياتل، مهتمة بالتربية الدينية وتعاليم صنع القرار الأخلاقي للأطفال. كان المؤسسون «أصحاب مكانة مرموقة أذكياء ومتحررين»، على حد وصف جودي وير، الابنة الكبرى لآل فارنرز. حثت والدة جودي، مديرة التربية الدينية بالكنيسة، ابنتها على قراءة كتاب «هيروشيما» لجون هيرسي في سن الثانية عشرة. أخبرني الأب دكتور بيتر جيه لوتن، وكان كبير القساوسة عندما زرت الكنيسة عام ٢٠٠٩، أن العائلات المؤسسة الأولى خرجت

من الحرب العالمية الثانية متحلية بثقة في إمكانية تأسيس مجتمع عادل وعقلاني يسوده الحب. قال إن تلك العائلات كانت متدينة وتؤمن بمذهب الإنسانية، وكان إيمانها نابعًا من «تجربة حية» أكثر من مجرد حقيقة غيبية تجلت لهم. كانت تملك حسًّا بالرهبة والتساؤل، وتقديرًا لما سماه بالتجربة غير المنطقية — المثالية، ولغز الحب، وقوى الموسيقى المحركة — دون نسب ذلك إلى إله تقليدي. ألقى القس الأول للكنيسة، تشادبورن إيه سبرينج، عظات تحت عناوين مثل «في مدح الهرطقة». وفي أعياد الميلاد، مثَّل الأطفال قصص ميلاد المسيح وكونفوشيوس وبوذا. حثت الكنيسة على الخدمة المجتمعية والتسامح، ونادت بالعدالة الاجتماعية. وأخذت على عاتقها مكافحة سياسة التفرقة وأيدت نزع السلاح النووي. علاوة على ذلك، ظهر تشريع الإسكان العادل بمقاطعة كينج من واقع اجتماعات عقدت بالكنيسة. حضرت المجموعات الشبابية بالكنيسة، التي شاركت فيها ستانلي آن، القداس في كنائس ومعابد أخرى، وبعد ذلك «كانت تعود لإجراء دراسات دينية مقارنة» كما أخبرتني أيونا ستينهاوس، وأردفت: «تحدثنا عن الديانات في أنحاء العالم، والأعمال الصالحة، وما يمكننا أن نقدمه للعالم حين نكبر.» وأخبرتني جين وادل موريس، التي شاركت في المجموعات الشبابية مع ستانلي آن، أنها نفسها أضحت، من خلال تجربتها بكنيسة إيست شور، «باحثة عن الحقيقة طيلة حياتها»، ومدركة للروحانيات من حولها لكن دون الالتزام بديانة منظمة (وهو الوصف عينه الذي ستوصف به ستانلي آن بعد سنوات كثيرة وهي امرأة بالغة). قالت جين موريس إن منزلها في مدينة تاوس، بولاية نيو مكسيكو، يعج بالرموز الدينية؛ على غرار تمثال لمحارب من الساحل الشمالي الغربي، وتمثال هوبي كاتشينا، وتمثال جوانين، والعديد من اللوحات والتماثيل الخشبية الدينية، وتمثال حجري عتيق لجانيش.

كان جيم ويشترمان — معلم ستانلي آن في السنة النهائية بالمدرسة الثانوية — طالب دراسات عليا بقسم الفلسفة في جامعة واشنطن عندما استُقدم للتدريس في ميرسر آيلاند. كلفه مدير المدرسة الثانوية بتدريس «مشكلات العالم المعاصر» لطلاب السنة النهائية، الذين كانوا يصغرونه بعشر سنوات فقط. فكر ويشترمان، بما أن مشكلات العالم المعاصر هي مشكلات فلسفية، لم لا أُدَرِّس الفلسفة؟ وبالفعل درَّس الفلسفة على مدى سبعة عشر عامًا، تحدث خلالها بحماسة عن أفلاطون وأرسطو والقديس أوجستين وديكارت وهوبز ولوك ومِل



شكل ٢-٣: ستانلي آن في السابعة عشرة من عمرها، من الكتاب السنوي لمدرسة ميرسر آيلاند الثانوية عام ١٩٦٠.[2]

وماركس وكيركجارد وسارتر وكامو. وبعد أن ترك مدرسة ميرسر آيلاند، درس الفلسفة في مدرسة خاصة في سياتل عشرين عامًا. لم يحصل على درجة الدكتوراه، لكن ذلك لم يعد يهمه. عندما التقيت به في صيف عام ٢٠٠٨، كان يناهز الثمانين من عمره ولا يزال يدرِّس الفلسفة، في هذه المرة في النادي الجامعي النسائي بسياتل وفي فصل مسائي للبالغين بميرسر آيلاند. قال لي: «كانت تجربة مسلية للغاية، كان يجدر بي أن أكافئهم عنها.» يبدو أن هذا الشعور كان متبادلًا. في الكتيبات السنوية للمدرسة الثانوية التي صدرت في أواخر الخمسينيات، كتب طلاب مدرسة ميرسر آيلاند عن ويشترمان أكثر من أي معلم آخر. وفي محادثات جرت بيني وبين رفقاء ستانلي آن بالصف بعد نصف قرن تقريبًا من ذلك الوقت، وصف رفقاء ستانلي آن حصص ويشترمان الدراسية بتجربة النضوج الفكري.

كان منهجه، الذي صاغه بالارتكاز على الدورات التدريبية التي حضرها بكلية الدراسات العليا، هو الانغماس التام. قرأ تلامذته الكتب باستمرار وبأعداد هائلة. وطلب منهم تقديم أبحاث كل ستة أسابيع. وفي الحصص الدراسية الخاصة، كان الطلاب يتبادلون نقد الأبحاث فيما بينهم. أخبرهم ويشترمان أن المعرفة مفتاحها

السؤال. تذكرت سوزان بوتكين بليك السيد ويشترمان وهو يسألهم: «هل العالم عبثي؟ هل يوجد إله؟ ما الخير؟ ماذا يعني ذلك في رأيك يا آنسة سوزان؟ وأنت يا آنسة ستانلي آن؟» تذكرت ماكسين بوكس أنها أخذت تكتب بحثًا على الآلة الكاتبة حتى الساعة الثالثة صباحًا حول: «كيف ترتبط هذه الأفكار بواقعنا؟» وقال لي ستيف ماكورد: «كنا نمثل النخبة. اعتبرنا أنفسنا أكثر ذكاءً من باقي الطلاب بمعظم المدارس. شعرنا بتميزنا، سواء أكان ذلك حقيقيًّا أم وهميًّا.»

من ناحية أخرى، كلفهم معلم الدراسات الإنسانية، فال فوبرت، بأبحاث حول كتب مثل «رجل المنظمة»، و«وسائل الإقناع الخفية» ورواية «أطلس لا يبالي»، وكتاب «النضوج في جزر ساموا». تقول كاثي باول سوليفان متذكرة: «كنا نقرأ بنهم لجاك كيرواك، فقد كانت رواية «على الطريق» بمنزلة كتابنا المقدس.» كان الامتثال للأعراف والتقاليد يقابل بالازدراء، وكانت فكرة الاختلاف جذابة في حد ذاتها. يقال إن فال فوبرت، وهو ممن شاركوا في الحرب العالمية الثانية، وقال البعض إنه عمل بوظيفة ليلية كعازف طبول في فرقة موسيقية، نُقل في النهاية إلى منطقة أخرى على إثر خلاف حول تعامل مدرسة ميرسر آيلاند مع شكاوى تقدم بها آباء الطلبة ضد قائمة الكتب التي طلب من الطلاب قراءتها. شكا الآباء أيضًا أن ويشترمان لا ينبغي له أن يدرس منهجًا يدرس في الكليات لطلاب المدرسة الثانوية. كان المنهج الدراسي يتسبب في مشكلات في المحيط الأسري للطلاب. قال لي ويشترمان: «تعلمين كيف يتصرف الطلاب، يتلقون فكرة ما بالمدرسة، ويثيرونها وقت تناول العشاء مع الأب، فينتفض الأب، ويستشيط الجميع غضبًا. بالطبع، يحب الأبناء ذلك الأمر. ليس الهدف هو إثارة المشكلات وقت العشاء، بل أن يكون للابن رأي خاص به: «إذا لم تعجبك هذه الحجة ففنِّدها إذن. ما أسباب عدم إعجابك بهذه الحجة؟ عليك أن تفكر.»»

صادقت ستانلي آن مجموعة من الأولاد ممن سيصيرون بعد ذلك أقرب أصدقائها في آخر عامين لها تقريبًا في ميرسر آيلاند في صف المعلم آرت سالارد للأحياء بالسنة العاشرة. كان سالارد، وهو شابٌّ أيضًا وعازف، يتجاذب أطراف حديث ودي مع طلاب بعينهم وأحيانًا ما كان يتفوه بملاحظات جانبية ساخرة. وفي حصص التشريح، كان الطلاب يتحركون في مجموعات بصورة عشوائية، وكانت الدعابات لاذعة. وتجلى وعي ستانلي آن الساخر. يقول جون هانت: «أذكر أن الطالب الذي كان يجلس بجواري، وهو صديق قديم لي كان رياضيًّا ويتمتع

بذكاء خارق، وكان يدلي بتعليقات حول ستانلي في محاولة منه لمعرفة سبب غموضها، فقد كانت مختلفة للغاية.» في العام التالي، جلست ستانلي آن على طاولة بمعمل الكيمياء تتاخم طاولة أخرى يجلس بها هانت وبيل بايرز ورالي رورك. أصبحوا جميعهم أصدقاء، وتصوروا أنفسهم أرباب أحدث التوجهات الثقافية. كان بايرز يكبر الآخرين قليلًا، وكان يملك سيارة، ورأى العالم الأفسح؛ سياتل وبلفيو. كان له أصدقاء من خارج ميرسر آيلاند، وفي سن السادسة عشرة بدأ في مواعدة فتاة من سياتل. كان بيل بايرز ابنًا لمدير شركة مشروبات كحولية ترك دراساته العليا حول تشوسر ليبحث عن عمل يوفر له راتبًا أثناء فترة الكساد الكبير. وكان يقرأ لدوستوفيسكي ويستمع إلى أغاني بيت سيجر، ويستعير الأسطوانات الكلاسيكية القديمة من أمين مكتبة المدرسة الثانوية. خارج أسوار المدرسة، كان يسلي نفسه هو وصديق له بصنع البارود من الملح الصخري والفحم النباتي والكبريت، ويصنعان تفجيرات صغيرة في الغابة، ليس بغية تدمير أي شيء، بل للمتعة فحسب. وداخل الفصل الدراسي، كان يخالف الرأي السائد من حيث المبدأ. تذكر بايرز رالي رورك بأنه كان يملك «نمطًا مبتكرًا للغاية من الذكاء. بإمكانك الوثوق به إذا قال أو فعل شيئًا يتناقض مع القواعد الاجتماعية المقبولة». كان لرورك أخت غير شقيقة تحيا حياة بوهيمية مترفة بحي الجامعة بسياتل، ومن خلالها اطلع أصدقاء رورك للمرة الأولى على الثقافة المضادة. اكتشفوا الأفلام الأجنبية بدور العرض في سياتل. يقول هانت: «كانت سلسلة أفلام «ثلاثية آبو» لساتياجيت راي أكثر الأفلام التي أصابتنا بالصدمة. كانت مختلفة تمامًا عن أي شيء شاهدناه من قبل، فقر العالم الثالث والفجوة الثقافية التامة. وهي أمور لم نعلم بها من قبل، لم نقرأ عنها. كنا نلتقي ونجلس ونتحدث كثيرًا. ماذا يعني ذلك؟ ما علاقة ذلك بنا؟ حاولنا الإلمام بذلك الموضوع بطرق غير مباشرة، وتساءلنا ماذا علينا أن نفعل حيال ذلك.» كان يوجد بحي الجامعة مقاهٍ أتاحت لنا قضاء أوقات طويلة في احتساء الإسبرسو وتناول حلوى بابا روم، والجلوس فوق وسادات، والاستماع إلى موسيقى الجيتار والجاز الكلاسيكية. يقول هانت: «كنا نركب سيارة بيل، ونفعل أي شيء، مثل أن نذهب في نزهات، أي شيء نهرب به من عائلاتنا ونتجاذب أطراف الحديث، كنا جميعًا نحتاج بشدة لأن نتحدث في أمور لا نتحدث عنها بالمنزل.» تذكر رورك أن رواية «على الطريق» لكيرواك شكلت لديهم أحلامًا بالفرار، وحلموا بالذهاب إلى سان فرانسيسكو.

شاركت ستانلي آن — وكانت الفتاة الوحيدة وسط المجموعة في الغالب — أصدقاءها ادعاءاتهم بالثقافة الرفيعة وما وصفه بايرز بمنظور «نحن في مواجهة المجتمع» فيما يتعلق «بالثقافة المهيمنة، والأشخاص الذين يفتقرون إلى عمق التفكير ويفعلون أشياء غير متروية. هؤلاء كانوا أنماط البشر الذين مقتتهم. أظن أنهم مثلوا لها مشكلة كبيرة. يحدثني شيء أنها شعرت بأنها منبوذة من المجتمع، شعرت أنها لن تصير واحدة منهم مطلقًا حتى وإن أرادت ذلك، هكذا شعرت». كانت غير تقليدية من نواحٍ عدة، غير أنها امتلكت نزعة محافظة أيضًا. ذات مرة أخذها بايرز بسيارته إلى بلفيو لمقابلة بعض الأصدقاء الذين تعرف عليهم وكانوا يمرون بمرحلة التحول إلى موضة الخنافس الأوائل. انبهر بايرز بأسلوب معيشتهم. تفقدت ستانلي آن المكان، ثم قال لبايرز في وقت لاحق: «أتدري؟ لا أستطيع العيش في مكان كهذا، إنه قذر.» وقد كان كذلك بالفعل كما تذكر بايزر في وقت لاحق. قال بايرز: «تمتعت ستانلي آن في الأساس بنظرة ثابتة وواقعية ومحافظة للغاية للأمور. تراءى لي أنها تدرك الحدود الفاصلة بين الأشياء، كانت محقة بشأن أولئك الخنافس. من وجهة نظرهم، كانوا يعيشون حياة تخلو من أي قيود. لكن بالطبع، كان ذلك يعني حياة تخلو من ...»

صمت لحظة.

ثم أردف: «... النظافة الشخصية.»

في السنة النهائية بالمدرسة الثانوية، أصاب علاقةَ الصداقة التي جمعت بين ستانلي آن وكاثي باول الفتورُ. قابلت كاثي جيم سوليفان، وهو شاب ينتمي لرابطة أخوية يدرس بجامعة واشنطن، في مطعم بانكيك كورال. ولأنه كان يكبرها بخمس سنوات، كذبت عليه بشأن عمرها. بدأت كاثي في وضع دبوس رابطة سوليفان على ملابسها. أخبرتني كاثي، أنها بذلك خانت صداقتهما. ذكرت كاثي أن ستانلي آن كانت ترى تميزها في رجاحة تفكيرها. وإذا ساورها أي اهتمام عاطفي تجاه شاب ما، ما كانت تفصح عن ذلك. في ربيع عام ١٩٥٩، اقترح جيم سوليفان على كاثي أن يدبر لالتقاء بعض أصدقائه بالرابطة مع بعض صديقاتها. عندما اقترحت كاثي انضمام ستانلي آن إليهم، أسقطها جيم من القائمة ووضع بدلًا منها فتاة تعتبر أجمل فتيات المدرسة. قال بايرز عن ستانلي آن: «لم تكن فائقة الجمال بأي حال من الأحوال، لكنها، بصراحة أكثر، كانت مثقفة للغاية، وكان بمقدورها إشعار الشخص بمدى تفاهته، فلم تكن تحتمل الأغبياء كثيرًا.»

شعرت كاثي أنها احتاجت إلى بعض التدريب، كي لا تتعامل بسخافة وازدراء مع أصدقاء جيم في المنظمة الأخوية.

في أوائل عام ٢٠٠٩، تردد على مسامعي اسم آلن يانج. إذا كان لستانلي آن حبيب بالمدرسة الثانوية، فربما كان آلن يانج، كما قيل لي. كان يكبرها بعام أو اثنين ويعيش في بلفيو، لكن لم يتذكر أحد كيف تقابلا. يقول بعض أصدقائهما إنه تولد داخل آلن إعجاب بستانلي آن لبعض الوقت، وبدت ستانلي راغبة نوعًا ما في تجربة الأمر. عثرتُ على عنوان السيد يانج وبعثت إليه بخطاب أطلب فيه أن يتحدث معي. في أوائل شهر مارس، تلقيت رسالة على البريد الإلكتروني من زوجته، بينيلوبي يانج. أخبرتني أن زوجها أصابه الذهول عندما تلقى خطابي: «إن آلن معجب للغاية بأوباما، لكنه لم يربط قط بين صديقته ستانلي من ميرسر آيلاند والرئيس أوباما، لذا مثل هذا الأمر مفاجأة كبيرة.» لكنه كان يتعافى من حادث وقع له، وحالته لا تسمح له بالحديث. وأخبرتني أيضًا أنه سيتصل بي عندما يسترد عافيته. بعد مرور عدة أشهر، بعثت إليها بخطاب أخبرها فيه أني ما زلت مهتمة بالأمر وقتما شعر زوجها بأنه مستعد للحديث. بعثَت لي برسالة إلكترونية بعد يومين لتخبرني بأن زوجها وافته المنية. قالت: «كان يتطلع للحديث معك عن ستانلي، لقد تذكرها بود وإعجاب كبيرين، فقد نعتها «بالذكية» و«المثقفة» و«المغامرة»، و«المرحة للغاية» وهي أوصاف لا تجتمع عادة معًا، على الأقل لوصف شخص بالمدرسة الثانوية.»

كانت ستانلي آن مغامرة بالطبع. ففي صيف عام ١٩٥٩، اقترح عليها ستيف ماكورد الذهاب في نزهة غير عادية في وقت متأخر من الليل. في ذلك الوقت كان الشذوذ الجنسي أمرًا يبقى طي الكتمان. تولد داخل ستيف ماكورد إعجاب بصبي يصغره سنًّا وأفصح لستانلي آن بذلك الأمر. اقترح عليها التسلل في وقت متأخر من الليل، والسير إلى منزل الصبي في الجهة البعيدة من الجزيرة، ومراقبته عبر النافذة أثناء نومه. ذكر ماكورد عندما أخبرني بتلك القصة أن ستانلي آن أبدت استعدادها، فقد كانت من الأشخاص «المستعدين للمغامرة دومًا». (وإذا أصابتها الحيرة الداخلية بشأن قرار ما، لا تقر بذلك، كما قال لي بايرز: «عندما كانت تقرر فعل شيء ما، كانت تفعله».) وعليه، في ليلة دافئة والنسيم عليل وفي ساعة متفق عليها، تسللت من نافذة غرفتها إلى حديقة مجمع شوروود السكني المضاءة بنور القمر. كان ماكورد بانتظارها، وانطلقا معًا نحو الجنوب. قطعا عدة أميال

حتى وصلا إلى منزل الصبي، وتسللا إلى النافذة، ونفذا المهمة دون أن يلحظ أحد وجودهما، ثم قطعا سيرًا عدة أميال في طريق العودة إلى المنزل، وإذا بهما يجدان ستان الأب يقف عند نافذة غرفة النوم وذراعاه عند خصره، في انتظار عودتهما. كانت ردة فعله صارمة لكن لم تكن عنيفة. يذكر ستيف ماكورد أنه قال: «يا فتاة، ادخلي إلى المنزل. وأنت، عد إلى منزلك!» مرت الواقعة، على ما يبدو، دون عواقب وخيمة على ستانلي آن. لكن تبين أنها سابقة لمغامرة أكثر جرأة ستخوضها بعد بضعة أشهر؛ فرار غير مخطط سيعصف بقواعد السلوك المدونة وغير المدونة التي حافظت على السلوك القويم للمراهقين بميرسر آيلاند. كان ذلك تصرفًا ينم عن التمرد لن ينساه والد ستانلي آن على الأرجح.

بعد مرور خمسين عامًا على الواقعة، لم يبد أن أحدًا من أصدقاء ستانلي اتفق على زمن وقوع تلك المغامرة. اعتقد بيل بايرز أنها حدثت في الخريف، لكن جون هانت تذكر في البداية أنها حدثت في الربيع. وأيًّا ما كان، حدث ذلك أثناء الليل، وكانوا في طريق عودتهم إلى ميرسر آيلاند في السيارة، ربما من مقهى في سياتل، وكانت معهم ستانلي آن. كانوا في سيارة والد هانت، وكان هانت يتولى القيادة. أخذ الحديث بينهم منحى سلبيًّا، من قبيل: «هذا الأمر مثير للاشمئزاز. إن المدرسة لا فائدة منها، لماذا نعبأ بالعودة إلى المنزل؟» أحاديث مراهقين، كما وصفها هانت. وفجأة، اقترح أحدهم عدم العودة إلى المنزل، وأن عليهم مواصلة القيادة بالسيارة، وبإمكانهم الوصول إلى سان فرانسيسكو. رفض هانت الاستمرار، وأصابته الدهشة من ذلك الاقتراح. قال فيما بعد إنه ربما توقع ذلك الأمر من بيل، لكنه لم يتصور أن ستانلي آن «وصل بها الأمر إلى الرغبة في تجربة الأمر». دب الجدال بينهم، ثم تحول إلى شجار حاد وباك. حاول هانت إقناع الآخرين بالعدول عن الفكرة، كما ذكر. وتراءى لي بوضوح أنه متألم لهذه الذكرى التي مضى عليها نصف قرن. استجدته ستانلي وبيل أن ينضم إليهما. لكن المغامرة بدت له عديمة الجدوى؛ فقد يتورطون في المشاكل إذا انقطعوا عن المدرسة، وسيُلاحقون باعتبارهم هاربين، وإذا ذهبت ستانلي وبيل بدونه فسيضطر إلى الكذب للتستر على فعلتهما. تذكر بايرز: «لا بد أنه كان معذبًا، لكنه كان شخصًا عاقلًا في الأساس. ما كان ليفعل شيئًا مثل ذلك أبدًا، كانت فعلة غير مسئولة ومجنونة للغاية ومحفوفة بالمخاطر بكل ما في الكلمة من معنى وأيضًا ليست عملية.» قال عن ستانلي آن: «تحمست للغاية لتلك الفكرة، ولولا ذلك، ما حدث الأمر أبدًا، أؤكد لكِ ذلك. كان من الممكن

أن تقول: «كلا، عد بي إلى المنزل.» لكنها لم تقل ذلك.» لذا قضي الأمر. أوصل هانت ستانلي آن وبايرز عند جراج آل بايرز، حيث أوقف بايرز السيارة الكاديلاك المكشوفة موديل عام ١٩٤٩ وكان لونها أخضر فاقعًا التي لم يعد أبوه يستخدمها. كان الجراج بجانب الطريق، يقع فوق هضبة وبعيدًا عن المنزل. استجداهما هانت: «رجاءً لا تفعلا ذلك، ستتسببان في الأذى للجميع.»

اتجه بايرز وستانلي آن جنوبًا في السيارة الكاديلاك. لم يكن معهما سوى ما يحملانه من نقود في جيوبهما والملابس التي يرتدونها. وعندما تحدثت مع بايرز، كانت ذكرياته عن تلك الرحلة غير مكتملة. قال لي إنه نسي معظم ما حدث، بما في ذلك الطريق الذي سلكه، وكم ابتعدا عن ميرسر آيلاند، وما تحدثا عنه في السيارة. لكنه أوضح لي أنها كانت نزهة بالسيارة، لم تكن مغامرة رومانسية أو هروبًا مع العشيقة للزواج. تذكر بعض الوقائع بصورة مفصلة إلى حد ما، مثل أنهما أقلا في السيارة مسافرًا على الطريق مهذبًا أسدى لهما خدمة استخراج المذياع الموجود بالسيارة من تابلوه السيارة لبيعه لعامل بمحطة تزويد الوقود عندما أوشك المال الذي معهما على النفاد. تذكر بايرز أنهم توقفوا على جانب الطريق للنوم، نام الرجلان في الكرسيين الأماميين، وستانلي آن بالخلف. استيقظ بايرز في الليل على صوت أنين؛ فقد استدار المسافر إلى الخلف جهة ستانلي آن محاولًا لمس جسدها، «وطلب منها بصوت خافت أن تكون «مطيعة»، في حين انكمشت ستانلي آن بعيدًا عنه قدر استطاعتها». صاح بايرز في الرجل، الذي استدار مكانه وتمتم باعتذار. قال بايرز: «لا أذكر أنني شعرت بالذعر، كنت غاضبًا فحسب. من المؤكد أنني لست رجلًا شجاعًا. أظن أنني كنت ساذجًا بدرجة كافية لئلا أفكر في احتمالات وجود مغتصب أو سفاح مجنون معنا بالسيارة.» أما ستانلي آن، عندما فوجئت بالتحرش البغيض من المسافر بها، فكانت خائفة بصورة واضحة. كانت تلك المرة الوحيدة التي يذكر فيها بيل بايرز أنه رآها في موقف خارج عن سيطرتها وتشعر بالذعر.

بعد ذلك، أنزلا المسافر من السيارة وأقلا مسافرًا آخر، صبيًّا متشردًا سلى بايرز بقصص عن الدعارة الذكورية وغيرها من طرق كسب الرزق للشباب في المدينة. وصلوا إلى منطقة خليج سان فرانسيسكو وشقوا طريقهم إلى منزل أخت رالي رورك غير الشقيقة، التي غادرت سياتل وكانت تعيش بمكان قريب من حرم جامعة كاليفورنيا ببيركلي. وصل بايرز وستانلي آن والمسافر الصغير ومكثوا هناك.

في غضون ذلك، ما إن آوى هانت إلى فراشه في سياتل في تلك الليلة — أو ربما عند استيقاظه في الصباح — حتى رن جرس الهاتف. كان والدا بايرز يتصلان به. قال لي هانت: «قلت لهما: «يا إلهي! لا أدري. لقد أوصلتهما إلى منزل بيل. ظننت أن بيل سيقلهما إلى المنزل».» وفي كانساس أيضًا، رن الهاتف في منزل ليونا وآر سي باين، ذكر لي تشارلز باين ذلك. فقد اتصلت مادلين بأمها ظنًّا منها أن ستانلي آن وبايرز ربما توجها إلى كانساس. ثم أُبْلِغَ عن فقدان ستانلي آن وبيل بايرز. تلقى هانت، الذي لم يعتَدْ أن يكذب على أبويه في الأمور المهمة، زيارة من أحد رجال شرطة المقاطعة. وتدريجيًّا، بدأت خيوط القصة تتكشف. أخبره هانت أنهم تحدثوا جميعًا عن خوض مغامرة، والذهاب بالسيارة إلى مكان ما. قالت ستانلي وبايرز: «أليس من الممتع الذهاب إلى سان فرانسيسكو؟» ولعل والدا بايرز تذكرا أن ابنهما تحدث عن أخت رورك غير الشقيقة التي تقطن بمنطقة خليج سان فرانسيسكو. اتصل أحدهم بالشرطة في منطقة بيركلي والمقاطعة المحيطة. توجهت الشرطة إلى المنزل، حاول المسافر الصغير أن يفر عبر نافذة مفتوحة، لكن دون جدوى. قُبض على الهاربين الثلاثة وجرى إيداعهم لوقت قصير في سجن الأحداث، الذي يفصل بين الإناث والذكور. وصل ستانلي دونام بالطائرة من سياتل واستطاع بطريقة أو بأخرى استرجاع السيارة التي صودرت، ثم أقل بايرز وستانلي آن إلى المنزل. على حد وصف بايرز، بدا أن ستانلي دونام يظن خطأً أن بايرز وستانلي آن هربا للزواج. قال لي بايرز: «أذكر أن ستانلي بدأ في حديث غريب قائلًا: «أتعلمان أن العلاقة الحميمة ليست بالصورة التي يصفها بها الناس؟»»

ثمة ما يدفعنا لأن نرى في رحلة السيارة تلك في منتصف الليل إيذانًا بأحداث ستقع فيما بعد في حياة ستانلي آن. من المؤكد أنها تكشف عن استعداد ستانلي آن لخوض المخاطر، وهذا الاستعداد هو سمة تسري في تاريخ آل دونام وآل باين. مادلين، في مراهقتها، تحدت والديها وتزوجت سرًّا. ستانلي، في سن صغيرة، ترك منزله وسافر إلى الساحل. ربما بدا ستانلي ومادلين متمسكين بالتقاليد ظاهريًّا، لكن ثمة ما يدفعهما إلى التنقل باستمرار، وهو الأمر نفسه الذي دفع الأمريكيين إلى التوجه ناحية الغرب وسيأخذ أسرة دونام في النهاية إلى أبعد نقطة يمكنهم الوصول إليها غربًا. ربما من المفاجئ أن نربط بين ذلك الدافع وبين مغامرة في وقت متأخر من الليل خاضتها فتاة في السنة النهائية بالمدرسة الثانوية. لكن حقيقة الأمر أن ستانلي آن ستواصل السفر بقية حياتها.

عندما عادت ستانلي آن إلى المدرسة، لم ترغب في التحدث عما حدث، كما ذكر هانت. أخبرني أن الناس ما كانوا ليستوعبوا الأمر، وهي كانت ستعجز عن الشرح. لم يسمع من قبل بمثل هذه المغامرة في المدينة. أخبرتني كاثي سوليفان أنه دار بخلدها حينذاك: «يا إلهي! إن هذا الأمر أسوأ من أن تحمل فتاة قبل الزواج.» لعل ستانلي آن كانت تريد: «إثارة حنق والدها»، على حد قول تشارلز باين. لم يبد أن أحدًا يذكر هل تلقت عقابًا أم لا عن تلك الفعلة. لكن مع نهاية السنة النهائية بالمدرسة الثانوية، أصبح من الجلي أن آل دونام سيغادرون ميرسر آيلاند. فقد أصبح عمل ستانلي في بيع الأثاث في سياتل غير مربح. كانت هاواي، بحداثة عهدها، تغازل الوافدين الجدد. كان عمدة هونولولو ووفد من رجال الأعمال بهاواي حضروا إلى الغرفة التجارية بسياتل في أكتوبر لمناقشة الفرص التجارية بهاواي. يذكر تشارلز، شقيق مادلين، أن مادلين كانت ستشعر بالسعادة إذا استقرت حيث هي؛ إذ كان عملها بالبنك ناجحًا. كذا، لم ترغب ستانلي آن في الانتقال إلى مكان آخر أيضًا. قال البعض إنها أرادت ارتياد جامعة واشنطن، حيث سيلتحق بها العديد من أصدقائها المقربين. أو ربما أرادت أن تتجه شرقًا وترتاد جامعة شيكاجو. تذكرت آرلين باين، التي كانت تدرس في جامعة شيكاجو للحصول على درجة الدكتوراه في التربية، أن ستانلي آن مكثت معها في ذلك العام؛ كانت تستطلع الجامعات على ما يبدو. وذكر أوباما، في كتابه، «أحلام من أبي»، أن أمه عرض عليها الالتحاق المبكر بجامعة شيكاجو، لكن «منعها جدي من الذهاب مقررًا أنها لا تزال أصغر من أن تعيش بمفردها». على أي حال، بعد تخرجها في المدرسة الثانوية بوقت وجيز، غادرت ستانلي آن. تقول ماكسين بوكس متذكرة: «كانت غاضبة لأنها مضطرة إلى الرحيل، لكن لم تملك خيارًا آخر في واقع الأمر.»

رحل أصدقاؤها — أول مجموعة من الأصدقاء المقربين حظيت بهم — أيضًا. تزوجت كاثي باول، التي حملت في السنة النهائية، من جيم سوليفان واستكملت عامها الدراسي بمدرسة إديسون الثانوية الفنية في سياتل. وذهب ستيف ماكورد إلى سان فرانسيسكو لدراسة الفن. وترك بيل بايرز الدراسة في جامعة واشنطن والتحق لبعض الوقت بكلية بالمكسيك، حيث قيل له إن ويليام بوروز أمضى وقتًا مثيرًا هناك. بعد ذلك، عاد إلى سياتل وحصل على شهادة في الهندسة الكهربية، وحصل على وظيفة بشركة بوينج. أما تشيب وول، فقد انضم إلى «فيلق السلام»، بعد تخرجه في جامعة واشنطن، وأمضى عامين في الهند، ساهم خلالهما في تأسيس

جمعيات تعاونية لمزارع الدواجن في قرية تطل على نهر الجانج بولاية بيهار وعمل أيضًا في مدينة حيدر أباد. ولدى عودته إلى الوطن، استُدعي للتجنيد وأرسل إلى فيتنام. ذهبت مارلين ماكميكن إلى كوريا مع فيلق السلام، وذهبت أيونا ستينهاوس إلى سيراليون. وأصبح الطالب الأول على دفعة عام ١٩٥٩، الدفعة التي سبقتهم، متخصصًا في الأنثروبولوجيا يعمل في جزر بولينيزيا الفرنسية. وبالنظر للأمر من منظورنا الحالي، يمكن اعتبار ستانلي آن — في سياق مدينة ميرسر آيلاند، حيث كانت فكرة الامتثال للتقاليد غير عصرية، على الأقل في بعض الأوساط — جزءًا من تلك النزعة.

وباستثناء بضع مقابلات عابرة، لم تلتق ستانلي آن بأصدقائها مرة أخرى ولم يسمع أحد منهم عنها شيئًا قط. تقول كاثي: «قيل إنها ذهبت إلى أفريقيا وتزوجت من ملك أسود، اعتقدنا ذلك لسنوات طويلة.»

هوامش

(1) Linnet Dunden Botkin.

(2) Photo insert page 5: Polaris.